تيريزا

إميل زولا

روايات الهلال

روائع القصص العالمي

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن دار الهلال

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٥٢ * أغسطس ١٩٦١ * ربيع الأول ١٣٨١

No. 152 — AUGUST 1961

بيانات اداريه

ثمن العدد فى اقليم مصر والسودان ٨٠ مليما — فى الاقطار العربية عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى اقليم سوريا ١٠٠ قرش سورى — فى لبنان ١٠٠ قرش لبنانى — فى الاردن ١٠٠ فلس — فى العراق ١٠٠ فلس

الاشتراك السنوى (١٢ عددا) — اقليم مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا — اقليم سوريا ولبنان (بالطائرة) ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا — السعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة والمغرب ١١٠ قروش صاغ — الامريكتين ٥ دولارات — سائر انحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا

طريقة الدفع

فى اقليم مصر : بموجب اذونات أو حوالات بريدية او شيكات — فى **السودان** : بموجب حوالات بريدية

فى الخارج : بتحويل مصرفى قابل الصرف فى القاهرة وقيمة الاشتراك ترسل مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال أو الى أحد وكلائنا ولا يمكن قبول أذونات البريد أو أوراق البنكنوت

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك — القاهرة

المكاتبات : روايات الهلال — بوستة مصر العمومية — مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاعلانات : يخاطب بشأنها قسم الاعلانات بدار الهلال

تيريزا

تأليف

اميل زولا

أهم شخصيات الرواية

مدام راكان : Mme Raquin سيدة عجوز لها ابن وحيد ، وتربى ابنةاخيها اليتيمة. صاحبة متجر خردوات صغير فى « ممر القنطرة الجديدة » بباريس

تيريزا راكان : Theresa R. بنت اخى مدام راكان اليتيمة وزوجة ابنها

كاميلوس راكان : Camillus R. ابن مدام راكان الوحيد وزوج تيريزا .. وهو شاب معتل الصحة منذ طفولته

ميشو : Michaud مفتش شرطة متقاعد ، كان مأمورا فى الارياف ثم اعتزل الخدمة واقام بباريس وهو صديق مدام راكان

اوليفييه : Olivier ابن ميشو .. وهو موظف بادارة المباحث الجنائية فى باريس

سوزان : Suzanna زوجة اوليفييه ميشو

جريفيه : Griviet موظف مسن فى ادارة السكة الحديد ، ورئيس الادارة التى يعمل بها كاميلوس راكان

لوران : Laurent صديق منذ الطفولة لكاميلوس راكان ، قوى البنية، مغامر، مستهتر، يهوى الرسم

الفصل الأول

الممر الضيق

هناك في باريس ، بين شارع مزارين وشارع السين ممر ضيق بين البيوت تغطيه عقود البناء من الجانبين تقريبا .. وطول هذا الممر ثلاثون خطوة ، أما اتساعه فلا يزيد على خطوتين .. وأرضه مرسوفة بحجارة صفراء اللون ابلاها القدم ، تهتز تحت قدم السائر فتخرج من بين فواصلها قطرات من الماء الآسن تصافح الانف منها رائحة حمضية . واما المربعات الزجاجية التي تعلو الممر لتحجب عنه المطر والريح فسوداء اللون لكثرة ما تراكم عليها من الاوضار والأقذار ، فصارت تحجب الشمس مثلما تحجب الريح والمطر

واسم هذا الزقاق « ممر القنطرة الجديدة » ..

وفي أيام الصيف الصافية السماء ، تستطيع حزمة من الاشعة القوية ان تتسلل من بين مربعات الزجاج القذرة ، من شق هنا أو هناك ، أو صدع هنا أو هناك ، فتغمر الممر بضوء باهت

اما في أيام الشتاء ، حين يكفهر الجو ويخيم الضباب ، فلا ترسل الشمس اشعتها الى ذلك المكان الضيق بباريس ، وتتركه فريسة للعتمة ، ويغدو النهار فيه ليلا كالحا رطب الانفاس كريه الرائحة

وعلى الجانب الأيسر من هذا الممر حوانيت ضيقة منخفضة تهب منها نسمات الاقبية المقرورة . وفي هذه الحوانيت تباع الكتب المستعملة واللعب الرخيصة والاوراق المستعملة في العاب الحظ . ومعظم هذه السلع تغطيه الاتربة ، وكانه يغط في نومه مستكينا الى الاهمال والنسيان في أطواء هذا الظلام . والعتمة داخل هذه الحوانيت التي ينخفض مستواها عن مستوى الممر اشد كآبة وأرطب

انفاسا ، والعاملون فيها يتراءون وكأنهم أشباح غريبة عن دنيا البشر تتحرك داخل اقبية

اما الجانب الايمن من ذلك الممر فعبارة عن حائط واحد لا ثغرة فيه ، يستغله اصحاب حوانيت الضفة الاخرى فى اقامة معارض لبضائعهم داخل واجهات زجاجية صغيرة ذات لون بنى قبيح. وفى أحد هذه المعارض اقامت امراة تجارة صغيرة لها فى الحلى المقلدة ، فهى تبيع أرخص أنواع الخواتم والقلائد فوق وسائد صغيرة من المخمل الازرق

ومن فوق السقف الزجاجى يعلو ذلك الجدار الاصم المعتم بفعل الرياح والمطر والدخان والتراب ، حتى أن ما فيه من خدوش أو صدوع فى طلائه تبدو لمرأى العين وكأنها آثار جذام او ندوب شجار فى وجه مربد

وممر القنطرة الجديدة ليس من الاماكن التى يغشاها الناس للتمشى او انتجاعا للنزهة والترويح عن النفس .. ولكن يلجأون اليه اختصارا للطريق وتحاشيا لقطع دائرة كبيرة من الشوارع الجميلة ، فمن يمرون به هم من يضيق وقتهم عن ايثار النظافة والضوء والمنظر الجميل .. فهم يسرعون باجتيازه لا يلوون على شىء ، ومعظمهم من صبيان المتاجر والمصانع الصغيرة فى أكسية العمل الزرقاء أو حائكات ثياب فى طريقهن لتسليم ما انجزنه للمتاجر من أثواب . وليس بين هؤلاء وهؤلاء من يلتفت يمنة أو يسرة ليلقى على تلك الحوانيت أو الواجهات الصغيرة فى اليسار او اليمين نظرة اهتمام .. حتى أن أصحاب الحوانيت هناك ينظرون بشىء من الريبة الى كل من يرونه ، بين الأمد والأمد ، يقف ليلقى نظرة على ما فى الداخل من السلع المتراكمة فى غير نسق بين الارض والسقف

ومن بين الحوانيت القائمة على الجانب الايسر من الممر متجر يضرب لون أثاثه الى الخضرة ، تعلوه لافتة طويلة ضيقة مكتوب عليها بحروف سوداء كلمة « خردوات » .. ومكتوب فوق زجاج الباب اسم امرأة : « تيريزا راكان » باللون الاحمر ، وعلى جانبى الباب واجهتان زجاجيتان مبطنتان بورق أزرق

واذا مررت من هناك بالنهار ، رأيت صناديق الخردوات الصغيرة مصفوفة داخل عتمة الحانوت . والنماذج التى أخرجت من صناديقها عبارة عن انواع رخيصة من الجوارب والقلانس والبنادق والحمالات، اصفر لونها من طول العهد وذهبت طلاوتها . وفى الجهة المقابلة للحانوت على الجانب الايمن معرض للازرار وأدوات الزينة الرخيصة وابر التطريز وحبك الصوف والشرائط الملونة ، وكلها أشياء مضى عليها فى ذلك المعرض بضع سنوات ..

وفى وقت الظهر فى أيام الصيف ، عندما تفلح بعض اشعة الشمس فى شعشعة الضوء الى ممر القنطرة الجديدة ، يستطيع الناظر أن يتبين داخل الحانوت ، بين أكداس البضائع والقلانس وجها شاحبا جادا لامرأة شابة .. جبينها منخفض ضيق يفضى الى أنف طويل نحيل مدبب . أما شفتاها فخطان ناحلان لونهما أحمر باهت ، وذقنها الصغير العصبى متصل بعنقها فى خط مضطرب سريع الاختلاج . أما جسمها فتخفيه عن الناظر من الخارج أكداس السلع ، فلا يظهر منه بين الحين والحين الا خط عام خال من التفاصيل .. وعيناها واسعتان سوداوان ، وشعرها غزير فاحم ، وقلما كانت هذه الصورة تتحرك من موضعها ، فهى تقضى الساعات هادئة بغير حركة فى موضعها المختار بين قلنسوتين من الصوف الابيض تناثر فى بياضهما صدا الاعمدة الحديدية التى علقت فوقها نماذج المعروضات لكثرة ما فى الجو من الرطوبة ..

وفى الليل ، عندما يوقد المصباح فى الداخل تستطيع أن ترى بمزيد من الوضوح ، فتقع عيناك فى أحد جانبى المتجر الصغير على « بنك » خشبى . أما الجانب الآخر ففيه سلم حلزونى يفضى الى مسكن فى الطابق العلوى . وأما الجدران فتشغلها اخونة خضراء اللون .. وفى الوسط أربعة مقاعد ومنضدة

وفى أغلب الاوقات تجلس وراء « البنك » امرأتان .. احداهما تلك المرأة الشابة ذات الوجه الجاد ، والاخرى سيدة عجوز يفتر وجهها دائما عن ابتسامة وهى غافية . والسيدة العجوز فى نحو الستين من عمرها ووجهها البدين الشاحب يبدو شديد البياض فى ضوء المصباح . وفوق البنك يربض قط كبير مرقش الجلد كأنه نمر صغير يرقب بعينيه الخضراوين العجوز النائمة فى مقعدها

ومن خلف السيدتين يجلس شاب فى نحو الثلاثين من عمره ، يطالع أو يتحدث بصوت خفيض الى المرأة الشابة .. وهو قصير القامة ، بارز العظام ،هزيل ، خفيف الشعر اشقره، شارد النظرات، خفيف اللحية ،وجهه الابيض ينتشر فوقه النمش الاصفر.. ويبدو فى جملته كالطفل العليل المدلل

وقبيل الساعة العاشرة تفيق السيدة العجوز من غفوتها ، ويتعاون الثلاثة فى اغلاق الحانوت .. ثم تصعد الاسرة كلها السلم اللولبى لتنام ، ويصعد القط فى اعقابهم ، وهو يحرص على حك رأسه بكل عمود من اعمدة السياج يمر به فى صعوده ..

وفى الطابق العلوى ، يتكشف المسكن عن ثلاث حجرات .. فالسلم اللولبى يفضى بك من اسفل الى حجرة طعام ، تستخدم فى الوقت نفسه حجرة جلوس . وفى جانبها الايسر مدفأة من القرميد ، يقابلها فى الجانب الايمن خوان . وفى الوسط مائدة مستديرة كبيرة تحيط بها المقاعد . وفى المؤخرة من قاعة الطعام والجلوس هذه حاجز يفضى الى مطبخ مظلم . وعن جانبى حجرة الجلوس والمائدة حجرتان للنوم

وبعد ان تقبل السيدة العجوز ابنها وكنتها ، تعتكف فى حجرتها . وينام القط فوق مقعد فى المطبخ ، ويذهب الزوجان الى مخدعهما . ولهذا المخدع باب آخر يفضى الى سلم خلفى صغير ، ينتهى الى ممر القنطرة الجديدة عن طريق دهليز ضيق للغاية ..

وما أن يدخل الزوجان المخدع حتى يرتمى الزوج على الفراش .. فهو دائما فريسة للحمى ، اما الزوجة الشابة فتفتح النافذة لتغلق المصاريع الخشبية ، وتتمهل بضع دقائق فى مواجهة ذلك الحائط الاسود الاصم الذى يعلو الممر المسقوف . وتطول نظرتها الشاردة ما شاءت لها ان تطول ، ثم تتحول عن النافذة فى صمت وتأوى الى الفراش غير مكترثة بشىء ..

الفصل الثانى

كانت مدام راكان فيما مضى تدير تجارة للخردوات فى مدينة فرنون . وظلت زهاء خمس وعشرين سنة مقيمة فى متجر صغير هناك . وبعد انقضاء بضع سنوات على وفاة زوجها ، شعرت بوطأة التعب والارهاق فباعت تجارتها .. وتجمع لها من مدخراتها ومن ثمن بيع متجرها رأس مال يصل الى اربعين الف فرنك ذهبا ، استثمرته فكان يغل عليها دخلا سنويا يصل الى الفى فرنك . وهو مبلغ يكفى حاجتها المحدودة وزيادة ، فقررت أن تعيش فى عزلة تامة عن متاعب هذا العالم وافراحه واتراحه لتنعم بحياة الطمأنينة والهدوء اللذين هما سر السعادة عند أمثالها ..

وتحقيقا لهذه الغاية ، استأجرت بيتا صغيرا باربعمائة فرنك فى السنة . وللبيت الصغير حديقة واسعة تمتد الى ضفة نهر السين . والبيت منعزل متوار عن الانظار يكاد يذكر الانسان بالدير . ويصل اليه المرء فى درب طويل ضيق متفرع من الطريق العام .. وهو درب خاص تحف به المراعى والمروج ، ولا يوصل الى دار غير تلك الدار التى تطل نوافذها على النهر وعلى التلال الجرداء فى ضفته الاخرى

وكانت السيدة المتقاعدة قد تجاوزت الخمسين من عمرها ، عندما حبست نفسها باختيارها هناك ، لا يؤنس وحشتها فى عزلتها الا ابنها الاوحد « كاميلوس » وابنة أخيها « تيريزا » . وكان هذان الانسانان الصغيران هما حسبها لتقر عينها وتغتبط بعيشها راضية النفس

وكانت سن كاميلوس فى ذلك الوقت عشرين سنة .. ولم تزل امه تدلله كما لو كان غلاما لم يشب عن الطوق . وهى فى حبها له

حب العبادة ، متأثرة بالمعارك المتصلة التى خاضتها ضد الموت كى تنقذ طفولته الطويلة من براثن العلة ، ثم لتحمى شبابه الواهن من نكساتها وعقابيلها . لقد اصيب الفتى منذ نعومة اظفاره بسلسلة متلاحقة من الامراض التى تخطر او لا تخطر على البال . وظلت مدام راكان خمس عشرة سنة فى نضال لا يفتر مع تلك العلل الوبيلة التى جعلت من ابنها هدفا لها لا تريد أن تحيد عنه . وكتب لها النصر بفضل صبرها وعنايتها وحنانها وشجاعتها

ومنذ العام السادس عشر ، اقترن ابلال كاميلوس من الامراض بمقدم المراهقة .. فظل جسده عرضة لهزات متعاقبة من آثار امراضه القديمة يشعر بصداها الموجع فى لحمه وعروقه . وكان لا بد أن يعاق نموه ، فظل قصير القامة شاحب المحيا معتل المنظر .. تتحرك اطرافه فى بطء وبغير فتوة او حمية . ولكن امه كانت تضاعف له الحب على قدر انحطاط قواه ووهن عظامه وخمود حميته ، وتنظر الى وجهه المكفهر الناحل بزهو الحنان والاعزاز .. أليست على خلاف الأمهات اللواتى يمنحن أبناءهن الحياة مرة واحدة ، قد وهبت وحيدها هذا الحياة نحوا من عشرين مرة ؟

وفى الفترات القصيرة التى تخللت الامراض ، كان الفتى يتحامل على نفسه ليختلف الى مدرسة للتجارة فى فرنون . وفى تلك المدرسة تعلم الهجاء والحساب ، ووقف تحصيله عند جدول الضرب والقسمة المطولة وبضع معلومات سطحية جدا فى النحو . وبعد ذلك تلقى دروسا خاصة لتحسين الخط ومسك الدفاتر . وعندما نصحوا لمدام راكان بارسال ابنها الى مدرسة ثانوية ارتعدت فرائصها ، لان المدرسة فى بلدة أخرى .. والاقامة فيها بالقسم الداخلى معناها موت كاميلوس ، فهى تعلم أنه سيموت ان هو فارق ظلها ، فقالت للناصحين أن الدرس سيقتله . وهكذا ظل كاميلوس جاهلا ، فجمع الى نقائصه وامراضه البدنية نقيصة عقلية هى داء الجهل ..

وفى سن الثامنة عشرة ، الفى كاميلوس نفسه بغير شغل يشغله أو علم يملأ فراغ راسه ، فثقل عليه السأم من ذلك الحنان المفرط الذى تسبغه عليه أمه ، والتحق كاتبا فى متجر للأطعمة الجافة براتب قدره ستون فرنكا فى الشهر

وكاميلوس قلق المزاج بتأثير علله وضعفه .. فكان فراغه يزيد من قلقه وبعده . ووجد بعض الهدوء والاستقرار فى العمل الشاق الذى يتطلب منه الاكباب على اعمدة هائلة من الارقام يجمعها ويعيد جمعها مرة بعد مرة فى صبر وأناة .. حتى اذا جاء المساء وأنهكه ذلك العمل المستمر ، وجد راحة فى الاستلقاء والشرود ..

وكانت مدام راكان قد تشاجرت مع ابنها بسبب اصراره على ذلك العمل فى المتجر ، لانها لم تكن تريد له أن يغيب عن نظرها ساعة من الزمان ، كى تبقيه ملفوفا فى أردية من الصوف ، فى حرز من نوائل الحياة وبوارحها . ولكن الفتى المدلل اصر على موقفه .. لانه وهو المتخم بالتدليل يشتهى العمل كما يشتهى الطفل لعبة يلهى بها ، لا عن احساس بالواجب والمسئولية ، بل بوحى من الفطرة التى اشعرته أن العمل حاجة طبيعية لا تستقيم بغيرها حياته . وهو لفرط ما صبته عليه امه من حنانها شديد الأنانية .. ذاته هى محور الكون كله ، يخيل اليه انه بحب من يعطفون عليه ويلاطفونه .. ولكنه فى الحقيقة مستغرق فى احساسه بنفسه ، لا يأبه بشىء سوى صحته ، وينشد بكل وسيلة ممكنة ادخال السرور على نفسه . وعلى هذا الاساس وحده التمس النجاة من رعاية امه ومعاقيرها فى ذلك المتجر البعيد عن عينها ، يقضى فيه سحابة النهار جامعا طارحا . وفى المساء ، عندما يعود الى الدار المتوارية على ضفة النهر عن الانظار ، كان يسرع الى السين مع ابنة خاله تيريزا

وتيريزا يومئذ على ابواب الثامنة عشرة .. وقبل ذلك بست عشرة سنة ، عندما كانت مدام راكان تشرف على تجارتها بالمدينة ، هبط عليها اخوها الكابتن ديجان ، حاملا بين ذراعيه طفلة فى الثانية من عمرها . وقد رجع لتوه من مقامه الطويل فى الجزائر .. وقال لأخته باسما :

ـ اترين هذه الفتاة الصغيرة ؟ انت عمتها ! .. ماتت امها عنها .. ولست ادرى كيف اقوم على رعايتها وحدى . ولذلك قررت ان اعطيك اياها

وتناولت مدام راكان الطفلة بين يديها ، وهشت لها وقبلت

وجنتيها الورديتين . وأقام ديجان فى فرنون اسبوعا .. ولم تكد أخته توجه اليه سؤالا عن الطفلة التي اعطاها اياها . وعلمت بصفة عامة ان الفتاة ولدت فىمدينة وهران ، وان امها كانت بارعة الجمال، وهى من المتوطنات او لعلها من بنات البلاد ..

وقبل رحيل ديجان من فرنون بساعة واحدة ، سلم أخته مدام راكان وثيقة ميلاد الطفلة ، وفيها اعتراف بأبوته لتيريزا .. ولم تره أخته بعد رحيله . وجاءها بعد سنوات انه قتل فى افريقيا

وشبت تيريزا وهى تنام فى فراش واحد مع كاميلوس مشمولة برعاية عمتها وحنانها . وكانت الفتاة ذات بنية حديدية ، ولكن عمتها كانت تكلؤها وكانها ذات علة مقيمة . وكان عليها ان تتجرع العقاقير والأشربة الطبية تشجيعا لابن عمتها على تناولها ، وتقضى وقتها فى حجرة محكمة شديدة التدفئة لتؤنسه . وكانت تقضى الساعات المتوالية مقعية امام نار المدفأة تحدق فى السنة اللهب من غير أن تحول عينيها أو تطرف بهما .. فحملتها تلك الحياة الموحشة المفروضة عليها بسبب اعتلال صحة ابن عمتها على الانطواء داخل نفسها ، وتعودت الكلام بصوت منخفض ، والسير بلا صوت على اطراف اصابعها ، والجلوس بلا حركة .. مفتوحة العينين تنظر الى لا شيء !

ولكنها حين تحرك يدها أو ترفع ذراعها لامر ما ، يدرك المرء على الفور أن وراء تلك الحركة مددا من الطاقة الكامنة والمرونة .. فعضلاتها قوية ، وبنيتها مطوية على حرارة وفتوة . وعندما غشى على ابن عمتها ذات مرة وهما على الشاطىء ، حملته بقوة ساعديها، وعادت به الى البيت فى خفة ويسر .. فحياة السكينة والخمول لم تستطع أن تخمد قوتها المتقدة ، وان جعلت لونها شاحبا قبيح الاصفرار فى الظلام . ولذا كانت تغادر عتمة الحانوت فى فرنون لتتطلع عند راس الشارع الى اشعة الشمس وهى تغمر الابنية والكائنات . وكان طبيعيا أن ترقص فى الخفاء فرحا عندما قررت عمتها بيع المتجر والاقامة فى البيت المنعزل على شاطىء السين ليل نهار ، لانه سيتاح لها الاستمتاع بالهواء والشمس . وزاد سرورها عندما أصر كاميلوس على العمل كاتبا فى متجر الأطعمة الجافة ..

فحررت من ملازمته طول النهار داخل الدار ، حيث تصر عمتها على اغلاق النوافذ خوفا على وحيدها . ولكنها ظلت محتفظة بعادة الهدوء الظاهرى فى ملامح وجهها وحركاتها ، بحيث تخفى حماستها واشد انفعالاتها حرارة تحت واجهة هادئة واسارير ساكنة .. سواء فى ذلك انفعالات السرور القليلة ، او انفعالات الغضب والاستياء . ولم تكن تسمح لنفسها بالقفز والجرى الا حين تكون فى الحديقة بعيدا عن رقابة عمتها .. ويحلو لها عندئذ أن تستلقى بين الاعشاب الطويلة على الشاطىء .. تستلقى على بطنها كما يستلقى الحيوان المتابد وقد توترت عضلات جسدها اليافع القوى، كانها حيوان يتحفز للوثوب ويخفى قوته تحت ستار من السكينة تمهيدا للانقضاض . وكانت تلتذ بغرس اصابعها فى طين الارض الندية ، وتقضى ساعات على هذا الوضع وهى تحلم احلاما جامحة. ويخيل اليها احيانا ان النهر الهادر يوشك ان يطغى عليها ، فيتصلب جسدها وتتاهب للدفاع عن نفسها ..

وفى الاصيل تثوب اعماقها الى الهدوء ، وتجلس بجوار عمتها تحيكان الصوف أو تحيكان الثياب .. وملامحها الهادئة تبدو مسترخية فى ضوء المصباح . ويجلس كاميلوس امامهما شاردا يفكر فى ارقامه ، وقلما يرتفع صوت منه او من امه بكلمة مقتضبة

ومدام راكان تنظر الى الشابين اليافعين فى حنان مطمئن ، لانها قد ربطت بينها وبين نفسها زواجهما منذ سنوات طويلة .. لأنها كانت ترتعد جزعا كلما فكرت فى يوم تفارق فيه الدنيا ، وتترك وحيدها وليس من يسهر على رعايته وتمريضه . اما زواجه من تيريزا ، فسوف يتيح له ما يفتقر اليه من الحنان والحدب ..

ولم يكن من العجيب أن تظفر تيريزا من عمتها بثقة كاملة ، فهى مجدة فى عملها قادرة على تحمل المشاق .. وهى خير من يصلح ملاكا حارسا لكاميلوس ، لهذا كان زواجهما أمرا مقضيا ..

وكان الشابان يعلمان منذ زمن طويل أن مصيرهما الى زواج .. فشبا وشبت معهما تلك الفكرة ، فصارت جزءا طبيعيا من اطار حياتيهما . وكانت مدام راكان بين الحين والحين ، تشير الى ذلك الامر قائلة :

ــ سننتظر الى ان تبلغ تيريزا الحادية والعشرين ..

وانتظر الاثنان بصبر واناة ، من غير لهفة او استحياء ..

ولم تكن دماء كاميلوس التي انهكتها العلل تعرف شيئا من ثوران المراهقة وضرامها ، فظل في شبابه كما كان في طفولته يقبل ابنة خاله كما يقبل امه من غير ان يحس في اعماقه بادنى اضطراب .. وهي في نظره رفيقة طيبة مجاملة ، تذود عنه السأم والوحشة بصحبتها .. وتشرب معه الدواء المر لتهون عليه مرارته . وحين يلهوان معا ويحتضنها فكأنه يحتضن غلاما مثله ، فلا يحس في جسده بخالجة . .ولم يخطر بباله في اية لحظة ان يقبل شفتي تيريزا الحارتين ، وهي تحاول الافلات من بين ذراعيه ضاحكة ..

والفتاة كذلك يبدو انها احتفظت ببرودها وعدم اكتراثها . وفي بعض الاحيان كانت تحملق في وجه كاميلوس بعينيها الكبيرتين ، ولا تحولهما عنه بضع دقائق .. ولكن نظرتها كانت ثابتة هادئة كل الهدوء . ولم يكن يختلج فيها شيء سوى شفتيها ، وهو اختلاج يسير جدا لا تكاد تفطن اليه العين .. فما من شيء يقرؤه المتفحص على ذلك الجبين الضيق وتلك الملامح الحازمة اليقظة . وعندما كان يجري ذكر زواجها من كاميلوس ، كانت تستمع في جد ، وتكتفي بالايماء موافقة على كل ما تقوله مدام راكان ..

وفي أمسيات الصيف ، كان كاميلوس يصحب ابنة خاله بعد الأصيل الى الشاطىء ، ضاربا عرض الحائط بتحذيرات أمه المسرفة ، متمردا على اغلال حنانها التي تكبله بها .. وكان يجري وهو قابض على معصم تيريزا .. ثم يتمرغ فوق العشب معها ويتحداها للمصارعة وهي تأبى . وفي ذات مرة قابل اباءها بالهجوم عليها ، ودفعها على غرة فوقعت .. واذا بتلك الفتاة الهادئة تنتفض واقفة كانتفاضة الوحشي الضاري ، وقد توهج وجهها واحمرت عيناها ، وانقضت عليه مرفوعة الذراعين ، فسقط كاميلوس على الارض من فرط الارتياع !

ومرت الاسابيع والشهور والسنون ، وحل اخيرا الموعد المضروب للزواج .. فانتحت مدام راكان بتيريزا جانبا ، وحدثتها عن أبيها وأمها واطلعتها على قصة مولدها . واصغت الفتاة لعمتها ثم قبلتها

من غير ان تقول كلمة واحدة . وفي المساء لم تتجه تيريزا الى حجرتها ، بل دخلت مع ابن عمتها الى حجرته .. وكان هذا هو التغير الذي طرا على حياتها في ذلك اليوم ..

وعندما برز الاثنان من الحجرة في الصباح ، كان كاميلوس على المعهود فيه من قلق العلة والانطواء على نفسه . وكانت تيريزا على المعهود فيها من التحفظ وعدم المبالاة وهدوء الأسارير ..

الفصل الثالث

الهجرة

وبعد زواج كاميلوس بأسبوع واحد ، قال لامه صراحة انه ينوى مغادرة فرنون والهجرة الى باريس ليعيش فيها . واحتجت مدام راكان .. فهى قد رتبت حياتها على المعيشة فى فرنون بهذا النسق، ولا تريد أن تغير شيئا فى اطار تلك المعيشة .. فثار غضب ابنها وهددها قائلا انه سيمرض ان لم تذعن لرغبته ، وقال فيما قال :

ــ أنا لم اعارض فى تنفيذ اية رغبة او فكرة من افكارك .. اذعنت لارادتك وتزوجت ابنة خالى ، وتناولت جميع الادوية التى خطر لك أن تجرعينى اياها .. فلى الآن الحق فى ان ابدى رايا فى مستقبلى . واقل ما يجب عليك هو الاستجابة لهذا الرأى .. وسنرحل فى نهاية الشهر ..

ولم تنم مدام راكان تلك الليله ، لأن القرار الذى اتخذه ابنها قلب حياتها رأسا على عقب ، فراحت تقدح زناد فكرها بجهد اليائس كى تضع منوالا جديدا لحياتها فى باريس .. وشيئا فشيئا، عاودها هدوؤها .. وخطر لها ان الزوجين الشابين حريان أن ينجبا، وسيكون راس المال الصغير عندئذ غير كاف .. فمن الواجب اذن خلق مورد جديد للمال ، وليس لها فى ذلك حيلة الا ان تعود الى التجارة ، وان تخلق عملا مثمرا لتيريزا تتولاه منذ الآن معها وتستقل به مستقبلا ..

وما أن طلع النهار ، حتى كانت قد وطنت نفسها على مغادرة فرنون .. ورسمت خطة لحياة جديدة . وعلى مائدة الغداء ، كان المرح الجاد مرتسما على محياها وهى تقول لابنها وزوجته ، او طفليها كما كانت تؤثر أن تدعوهما :

ــ هذا ما سنصنعه .. سأذهب الى باريس غدا ، وسأبحث عن

محل صغير لتجارة الخردوات ، كى نعود ــ أنا وتيريزا ــ الى بيع الخيوط والازرار والدبابيس . وسيشغلنا هذا فلا نشعر بسأم الفراغ . اما انت ياكاميلوس فسيكون فى وسعك أن تفعل بوقتك .. ما يحلو لك ، فتستطيع ان تستمتع بالرياضة فى الشمس ان شئت، وان تبحث لك عن عمل ان شئته ..

فاجابها الشاب قائلا :

ــ بل سأبحث عن عمل هناك ..

والواقع أن ضربا من الطموح الابله هو الذى حفز كاميلوس الى الرحيل عن فرنون ، لان نفسه حدثته بالعمل فى مؤسسة كبرى بالعاصمة . وكان دم السرور والنشوة يصبغ خديه الشاحبين عندما يتخيل نفسه جالسا فى مكتب ضخم وقد ارتدى كمين مستعارين اسودى اللون ووضع خلف اذنه قلما .. !

ومهما يكن من شىء ، فما من احد خطر له ان يستطلع راى تيريزا فى ذلك كله . فهى تبدى على الدوام طاعة سلبية ، حتى ان عمتها وزوجها ، لم يكبدا نفسيهما عناء سؤالها عن رأيها فى ذلك الرحيل .. فهى ستذهب حيث يذهبان ، وتفعل ما يفعلان أو ما يريدان لها ان تفعل ، من غير تذمر أو عتاب ، بل ومن غير أن يبدو عليها اى اثر

ووصلت مدام راكان الى باريس ، واتجهت رأسا الى ممر القنطرة الجديدة ، لأن عانسا عجوزا من أهالى فرنون وجهتها الى قريب لها يملك متجرا للخردوات فى ذلك الممر وفى نيته أن يبيعه . ورأت مدام راكان ان الحانوت صغير معتم فلم يرق لها .. ولكنها بعدما غادرته وخرجت الى شوارع باريس ، افزعها زحام تلك الشوارع وضجيجها ، وروعتها فخامة السلع المعروضة فى واجهات المتاجر الكبرى وفداحة اثمانها . فصار ذلك الممر الضيق المنزوى بحوانيته المتواضعة وبضائعه الزهيدة اقرب الى نفسها ، والى ما الفته من حياة الهدوء والانزواء فى فرنون ، يوم كانت تدير هناك متجرها القديم . وآمنت انها اذ تقيم فى ممر القنطرة الجديدة ، ستشعر وهى فى قلب باريس انها لم تغادر الاقاليم ، ويعصمها ذلك من الاحساس بالضياع وسط هذا الضجيج والزحام والترف والفخامة

واعتقدت ان طفليها سيكونان هناك انعم بالا ، سعيدين بالانزواء في هذا الركن القصي . ثم وجدت في زهادة ثمن المتجر ما يحسم كل تردد .. اذ وفقت الى شرائه بألفي فرنك . وايجار الحانوت والمسكن الذي يعلوه الف ومائتي فرنك في السنة . وكان لدى مدام راكان نحو أربعة آلاف فرنك من المدخرات نقدا . فقدرت ان في استطاعتها دفع ثمن المتجر واجرة السنة الاولى من غير أن تجور على شيء من راس مالها المستثمر في أوراق مالية تضمنها الحكومة. وقدرت أن مرتب ولدها مضافا اليه ربحها من التجارة سيكون كافيا لنفقات المعيشة، بحيث لا تحتاج الى شيء من ايراد راس مالها المستثمر .. فينمو راس المال وتتراكم منه ثروة صغيرة او بائنة لاحفادها وحفيداتها الذين تتمناهم

وعادت مدام راكان الى فرنون مبتهجة النفس ، فقالت لولديها انها عثرت على كنز .. على مكان بديع في قلب باريس ! .. وشيئا فشيئا صار الحانوت الرطب المعتم في ممر القنطرة الجديدة قصرا فاخرا تروى عنه الاحاديث المسهبة في الامسيات . وكانت مخلصة وهي تتمثله في ذاكرتها مكانا رحبا لائقا هادئا ، له الف مزية ومزية !

ـ آه ياتيريزا ياعزيزتي ! ستربن كم ستسعدك الاقامة هناك . فهناك ثلاث حجرات رائعة في الطابق العلوي .. والممر غاص بالناس الغادين والرائحين ، وسننسق الواجهتين الزجاجيتين تنسيقا ساحرا .. ولن يجد السأم طريقه الى نفوسنا !

وتدفق حديثها على هذا المنوال ، وقد استيقظت فيها غريزة التجارة ، وراحت تصدر الى تيريزا التعليمات في أساليب البيع والشراء ، والحيل التجارية ، والاعيب السوق الصغيرة ، وتحذرها من خبث ابناء باريس ..

واخيرا غادرت الاسرة البيت الوادع القائم على ضفة السين . وفي مساء ذلك اليوم نفسه ، حلت الاسرة بممر القنطرة الجديدة..

وعندما خطت تيريزا الى داخل الحانوت الذي كتب عليها أن تقيم به منذ تلك اللحظة ، أحست كأنها تنزل حفرة بها طين متعفن. ودامت حلقها بوادر الغثيان ، وارتعدت أوصالها خوفا .. والقت

نظرة على الممر الرطب القذر ، ونظرة اخرى اكثر امعانا على الحانوت. وصعدت السلم الحلزوني ، وطافت بأرجاء المسكن ، فصدمتها عاريه ووحشته .. ولكنها لم تحرك ساكنا ، لا بالاشارة ولا باللفظ ، لانها احست بتجمد كالذي يحدث للماء عندما يصير جليدا . ولما تركتها عمتها وزوجها وهبطا الى الحانوت ، جلست على حقيبة من الحقائب وضمت يديها في حجرها وقد امتلأ حلقها بالنشيج ، بيد انها عجزت عن البكاء ..

ولم تحل مدام راكان من الخجل لاسرافها في الخيال واسترسالها مع الاحلام .. ولكنها حاولت أن تدافع عن الصفقة التي عقدتها ، وتمحلت دواء لكل نقيصة تكشفت عنها .. فارجعت العتمة الى تلبد السحب في سماء ذلك اليوم . اما الرطوبة والقذارة فيكفى للقضاء عليهما التطيف الجيد . وهز كاميلوس كتفيه وقال لهما :

ـ على رسلك ! ان المسكن لا باس به .. ثم اننا لن نصعد اليه الا في المساء . وانا لن اعود من عملي قبل الخامسة او السادسة ، وستكونان انتما معا طول النهار في المتجر ، فلن تحسا بالضجر ..

فالشاب المدلل لم يكن ليوافق بحال من الاحوال على الاقامة في ذلك الجحر المظلم الرطب ، لولا تعويله على لذة قضاء اليوم في مكتب مؤسسة كبرى .. وكان واثقا من شعوره بالدفء طول النهار هناك . اما في الليل فسياوي الى فراشه مبكرا ، وبهذا يتجنب الاحساس بالرطوبة والوحامة ..

وظلت الفوضى سائدة في المتجر والمسكن مدة الاسبوع الاول ، لان تيريزا جلست وراء « البنك » منذ اول يوم ولم تتحرك من موضعها . وعجبت مدام راكان في نفسها من امر هذه الشابة التي لا تشعر بادنى حافز لتنسيق بيتها ، ووضع أصص الازهار في النوافذ ، وتغيير ورق الجدران والستائر والبسط . ولما اقترحت العجوز شيئا من الاصلاح والزينة ، اجابتها ابنة اخيها بكل هدوء قائلة :

ـ وفيم العناء ؟ اننا هكذا على تمام سجيتنا .. وراحتنا موفورة ، فلا حاجة بنا الى شيء من الترف الكاذب

فقامت مدام راكان بمفردها بتنسيق البيت ، ثم تنسيق المتجر،

الى أن ضاقت تيريزا ذرعا بمجهودات عمتها فاستأجرت عاملة للتنظيف ، تأتى كل يوم ساعة أو نحوها ثم تنصرف .. وبذلك استقرت مدام راكان فى موضعها وراء « البنك » بجوار تيريزا ..

وقضى كاميلوس شهرا كاملا فى البحث عن عمل .. ومعظم وقته فى هذا الشهر كان ينفقه فى التجوال فى الشوارع ، الى ان سئم تلك الحال وبدا يتحدث عن رغبته فى العودة الى فرنون ! .. واخيرا حصل على عمل فى المركز الرئيسى لادارة سكك حديد أورليان ، وحددوا له راتبا مائة فرنك فى الشهر .. وهكذا تحقق حلمه !

وصار كاميلوس يغادر البيت فى الثامنة صباحا ، فيخرج من الممر الى شارع السين ، ثم الى الارصفة فيمشى على ضفة النهر من المجمع العلمى الى حديقة النباتات ويداه فى جيوبه . ولم يشعر بالسأم من هذا السير الطويل وحيدا مرتين فى اليوم للذهاب والاياب .. فهو ينظر الى النهر المتدفق تارة ، والى السفن المحملة بالاخشاب تارة أخرى ، ولا يضنى ذهنه بالتفكير فى شىء . وربما وقف امام كنيسة نوتردام الكبرى ، وكان البناءون مشغولين عندئذ بترميمها ، وينطلق بعد ذلك الى مرفأ النبيذ فيتسلى باحصاء العربات الخارجة من المحطة ، وربما اخترق حديقة النباتات فى طريق العودة والقى نظرة على اقفاص الدببة .. وتسكع مدة نصف ساعة مستمتعا بالاعيب الدببة الصغيرة ، ولا سيما العابها البهلوانية فى التأرجح بين قضبان الاقفاص . وكانت لذته فى تلك المشاهدة عظيمة ، وان لم يفكر فى دواعيها .. ثم يستأنف السير الى البيت على مهل ، وهو يرقب بعينيه المارة والعربات والمتاجر ..

وما ان يصل الى البيت حتى يأكل ثم يشرع فى القراءة ، وكان قد اشترى طبعات رخيصة مستعملة من أعمال تيير التاريخية ودراساته لعصر نابليون ، والتاريخ الذى كتبه لامارتين عن حزب الجبل اثناء الثورة الكبرى ، وبعض مبسطات شعبية فى العلوم والفلك والتاريخ الطبيعى ، وقد خصص لنفسه ثلاثين صفحة يقرؤها كل مساء بصرف النظر عما قد يصيبه من الضجر .. لان ذلك كان يدخل فى روعه انه يستكمل تعليمه وثقافته . وربما طلب الى زوجته ان تصغى ، ثم يقرأ لها فقرات تعجبه أو طرائف . وكان يدهشه دهشة بالغة ان تيريزا تطيق البقاء غارقة فى شرودها

الصامت طول الامسية ، من غير ان تحدثها نفسها بتصفح كتاب مثلا .. فآمن فى أعماق سريرته ان زوجته ضعيفة العقل متخلفة الذهن ..

والحق ان تيريزا كانت لا تجد صبرا على قراءة الكتب ، فهى تؤثر الصمت والسكون ، تثبت عينيها فى اتجاه واحد وتطلق العنان لخواطرها بغير ضابط .. ولكنها كانت على الدوام لينة العريكة سهلة القياد ، لانها جعلت كل همها فى ان تكون أداة سلبية طيعة لا ارادة لها ..

ومضت التجارة بمعدل واحد .. فالارباح فى كل شهر كالذى سبقه بغير زيادة او نقصان . والعملاء هن الحائكات المقيمات فى ذلك الموضع من الحى . وفى كل خمس دقائق تدخل فتاة فتشترى شيئا ببضعة مليمات . وتقوم تيريزا على خدمتهن بالفاظ لا تتغير ، وابتسامة تقفز الى شفتيها بطريقة آلية . أما مدام راكان فكانت اكثر تبسطا واطلق لسانا ، فهى فى الواقع التى كانت تجتذب قلوب العملاء ، وتستبقى صلتهم بالحانوت

ومضت الامور على هذا النسق الرتيب ثلاث سنين .. كل يوم فيها صورة مكررة من امسه ، مطابقة لغده . ولم يتغيب كاميلوس عن مكتبه يوما واحدا ، وأمه وزوجته لم تغادرا الحانوت الا مرات معدودات لا تستحق ان تذكر

ومن الطبيعى ان تيريزا وهى تعيش فى ذلك الظلام الرطب والصمت الواجم الثقيل ، كانت ترى الحياة تمتد امامها عاطلة من كل زخرف ، جرداء من كل ثمرة .. يتمخض كل مساء فيها عن مضجع بارد موحش ، ويتجشأ كل صباح عن يوم ثقيل الوطأة بارد الانفاس بغيض الريح خواء ...

الفصل الرابع

سهرة الخميس

وخصص آل راكان يوما واحدا فى الاسبوع ، هو مساء الخميس ، للاستقبال .. فتوقد فى حجرة المائدة الانوار ، وتوضع على النار قدر للشاى .. فمساء الخميس من كل اسبوع حدث فريد فى حياة الاسرة ، يختلف عن سائر ايام الاسبوع اختلافا ظاهرا . وحسب هذه السهرة من خطورة فى حياة آل راكان ، انهم يأوون الى الفراش فى الساعة الحادية عشرة !

وكانت مدام راكان قد التقت باحد أصدقائها القدامى فى باريس ، هو مأمور الشرطة «ميشو» الذى قضى عشرين عاما من خدمته فى فرنون . وكان يسكن دارا واحدة هو وآل راكان هناك يومئذ ، فتوثقت عرى الصداقة بغير تكلف بينهما .. ثم افترق الصديقان . فاعتزلت مدام راكان التجارة وسكنت دارا على شاطىء السين . وبعد بضعة أشهر ترك ميشو الخدمة فى الاقاليم لبلوغه سن التقاعد ، واقام فى باريس فى شارع السين لينعم بحياة هادئة بفضل معاشه السنوى المتواضع ، الى ان اتفق له عبور ممر القنطرة الحديدة ذات يوم فاذا به وجها لوجه امام صديقته العتيدة مدام راكان . وفى مساء ذلك اليوم نفسه ، جاء تلبية لدعوتها وتناول طعام العشاء على مائدة آل راكان .. وكان ذلك يوم خميس ، فبدات بهذا الحادث السهرة التى صارت تقليدا اسبوعيا ، لان مأمور الشرطة السابق حرص على القدوم فى نفس الموعد بانتظام . وبعد بضعة اسابيع اتى معه بابنه « اوليفييه » ، وهو رجل طويل القامة فى الثلاثين من عمره ، نحيل ، متزوج من امراة مفرطة فى القصر بطيئة الحركة عليله التكوين . واوليفييه يشغل منصبا فى حكمدارية الشرطة ، يدر عليه ثلاثة آلاف فرنك فى

الشهر .. فكان ذلك مثار غيرة شديدة لدى كاميلوس ، لان اوليفييه كبير الكتاب فى ادارة المباحث الجنائية

وشعرت تيريزا بنفور من اول نظرة الى ذلك الشاب الفاتر الحياء المتعالى ، الذى يحس بتنازله وتعطفه بالقدوم الى ذلك الحانوت فى ممر القنطرة الجديدة ، هو وزوجته الضعيفة الشاحبة اللون ..

وانى كاميلوس من جانبه بضيف آخر ، وهو موظف محوز فى ادارة السكة الحديد التى يعمل بها وهو «جريفيه» رئيس الكتاب الذى يتقاضى الفين ومائة فرنك فى الشهر .. وهو الذى يوزع العمل على الموظفين فى مكتب كاميلوس ، ولذا كان كاميلوس يبدى نحوه احتراما خاصا

وفى احلام اليقظة الكثيرة التى كان يستغرق فيها كاميلوس ذاهبا وآتيا من العمل ، كان يحدث نفسه ان جريفيه سيموت يوما ما ، وانه قد يحل محله بعد عشر سنوات او نحو ذلك .. وكان جريفيه يشعر بسرور عظيم للاستقبال الحافل الذى تتلقاه به مدام راكان ، ولذا كان حريصا على الحضور بانتظام فى مساء كل يوم خميس .. وبعد انقضاء ثلاثة أشهر ، انقلب هذا الحرص الى عادة واجبة بل محتمة .. فهو يذهب الى ممر القنطرة الحديدة فى مساء الخميس ، مثلما يذهب كل صباح الى مكتبه بصورة آلية شبه غريزية ..

ومنذ الساعة السابعة مساء ، تشعل مدام راكان النار ، وتضع المصباح الكبير فى وسط المائدة .. والى جانبه معدات لعبة الدومينو ، وتنصرف الى غسل فناجين الشاى . وفى تمام الساعة الثامنة يلتقى امام باب الحانوت ميشو وجريفيه .. احدهما قادما من شارع السين والاخر من شارع فرارين ، فيدخلان معا وتنتقل الاسرة بكامل هيئتها الى الطابق العلوى ، ويجلس الجميع حول المائدة فى انتظار قدوم اوليفييه ميشو وزوجته .. فمن عادتهما ان يصلا دائما متأخرين ..

وبعد ان يلتئم الجمع ، تصب مدام راكان الشاى ، ويفرغ كاميلوس صندوق الدومينو فوق الغطاء المشمع المبسوط على المائدة . ويستغرق الجميع فى اللعب ، فلا تسمع الا دقات الدومينو بين الحين والحين . وبعد كل جولة ، يرتفع النقاش دقيقتين او

ثلاثا ، ليعود السكون بعدها الا من طرقات الدومينو على خشب المائدة ..

وكانت تيريزا تلعب بعدم اكتراث ، يثير أعصاب كاميلوس ... وربما رفعت عن الارض فرانسوا ، وهو القط الكبير الذى أتت به مدام راكان معها من فرنون ، ووضعته على حجرها لتربت عليه باحدي يديها وهى تلعب الدومينو باليد الاخرى ..

والحقيقة ان سهرات الخميس كانت عذابا لتيريزا .. ولذا كثيرا ما كانت تتعلل بصداع أو توعك حتى لا تشترك فى اللعب ، وتجلس صامته نصف نائمة وقد اعتمدت بخدها على راحة يدها ، ووضعت مرفقها على المائدة ، وانصرفت الى مراقبة ضيوف عمتها وزوجها فى ضوء المصباح الضارب الى الصفرة . وكان كل وجه من تلك الوجوه يثير تأففها ، فتنتقل ببصرها من وجه الى وجه ، وهى مشمئزة اشمئزازا عميقا .. تبذل غاية جهدها حتى لا يبدو على عينيها.. فوجه العجوز ميشو أبيض فيه لطخ حمراء . انه وجه شيخ ماتت حيويته ، وصار الى طفولته الثانية . اما جريفيه فوجهه ضيق وعيناه مستديرتان وشفتاه رفيعتان .. وهى معالم سحنة تدل على البلاهة

واما اوليفييه فعظام خديه بارزة حتى أنها تكاد تخرق جلده ، ووجهه فيه تصلب خال من المعنى يرتكز على جسد سخيف التكوين .. وسوزان زوجة شاحبة خائرة القوى زائغة النظرات ناعمة الوجه شفتاها خاليتان من اللون .. فتيريزا على الجملة ، لم تجد فى هؤلاء الضيوف الاربعة فى سهرة الخميس الاسبوعية مخلوقا بشريا واحدا تترقرق فيه الحياة .. فكانهم اشباح بلا معنى ، حكم عليها بالحبس معهم فى مثل ذلك المساء من كل اسبوع ..

وفى بعض الاحيان ، كان هذا الاحساس يثقل عليها... فينتابها نوع من التخيل المرضى ، فترى نفسها وقد دفنت فى مقبرة مع اجساد أموات ، ولكنهم يحركون رءوسهم بطريقة ميكانيكية ، ويحركون أرجلهم واذرعهم مثلما تفعل الدمى فى مسرح العرائس عندما تحركها الخيوط .. فهواء حجرة الطعام المغلقة النوافذ يكاد يخنقها ، والصمت الثقيل القابض ، وضوء المصباح الضارب الى

الـ.. ـره .. تملأ جوانحها برعب غامض وقلق لا تستطيع ان تعبر .. ـه الالفاظ ..

وكانت مدام راكان قد ثبتت فى باب الحانوت ناقوسا صغيرا .. ... سمع فى ذلك الصمت كان ايذانا بحضور عميل الى المتجر .. فكانت تريزا ترهف اذنيها طول الوقت ، حتى اذا شق صرير الناقوس السكون السائد فى الحجرة أسرعت بالنزول منتهزة على الهروب من جو قاعة المائدة . وتستغل قدوم العميل فتقوم على خدمته بابطأ ما تستطيع ، حتى اذا قضى العميل حاجته وتركها لنفسها ، جلست بمفردها فى الحانوت وظلت فى موضعها أطول مدة ممكنه.. تخشى الصعود وتتهيب العودة الى الجو الخانق ، وتتجنب أن يقع بصرها على سحنة جريفيه واوليفييه

ويعمل الهواء الرطب فى الحانوت فعله فى تهدئة نفسها وتلطيف الحرارة التى تسرى فى يديها فتعود الى مظهرها الهادىء المألوف .. ولكنها للاسف لا تستطيع ان تبقى ما شاءت البقاء فى الحانوت لان غيابها الطويل يثير سخط كاميلوس ، فهو لا يستطيع ان يفهم كيف يفضل اى انسان الوحدة فى ذلك الحانوت على الجلوس مساء الخميس فى قاعة المائدة بين الضوء والصحبة الحسنة .. لذا سرعان ما يطل من راس السلم اللولبى ، ويجيل نظره فى المتجر متفقدا زوجته ، ثم يصيح :

ــ ماذا تفعلين هناك ؟ لماذا لا تصعدين ؟.. جريفيه محظوظ هذه الليلة .. ربح جولة اخرى

وتنهض الشابة على مضض ، وتعود الى مكانها من المائدة فى مواجهة ميشو العجوز الذى يبتسم ابتسامة مغززة .. وتظل فى موضعها هذا الى الحادية عشرة ، والقط بين ذراعيها تتشاغل به حتى لا تقع عيناها على تلك الدمى المزيفة الحياة التى تتحرك من حولها بلا معنى .. !

••••••

الفصل الخامس

ألا تعرفينه ؟

وذات يوم من أيام الخميس ، عاد كاميلوس من مكتبه الى المتجر، وفي صحبته شاب طويل القامة عريض المنكبين دفع به من ظهره الى الداخل في الفة ، وأشار اليه بسبابته قائلا لامه :

ـ ألا تعرفين هذا الشاب يا اماه ؟

فنظرت السيدة العجوز الى الشاب الطويل ، ونقبت في ذاكرتها ، فلم تجد شيئا يذكرها به .. وكانت تيريزا ترقب المنظر بهدوء ، فصاح كاميلوس :

ـ كيف هذا يا اماه ؟! .. ألا تعرفين « لوران » الصغير ؟ ابن لوران الكبير الذي يمتلك حقول القمح البديعة بالقرب من جيفوس ؟ ألا تذكرينه ؟! .. كنت اذهب معه الى المدرسة ، وكان من عادته ان يقف ليصحبني كل صباح وهو قادم من بيت عمه الذي كان يقيم بجوارنا .. وكنت تعطينه كل يوم شطيرة من الخبز محشوة بالمربى

وعلى الفور تذكرت مدام راكان لوران الصغير ، وادهشها ان تطول قامته الى هذا الحد . ولم تكن قد رأته منذ عشرين سنة ، فحاولت عن طريق القاء سيل من الذكريات الدقيقة ان تشعره بحفاوتها ، وتعوضه من النسيان الذي بدر منها عند دخـــوله .

وجلس لوران ، وابتسم في طمأنينة وهدوء ، واخذ يجيب بصوت واضح عن الاسئلة التي توجه اليه ، ويلقي فيما حوله نظرات هادئة تدل على الثقة بالنفس .. واستطرد كاميلوس يقول لامه :

ـ تصوري يا اماه ان هذا العملاق العريق يعمل في محطة سكة حديد أورليان منذ عام ونصف ، ولكننا لم نتقابل الا هذا المساء ! وهذا يدلك على مبلغ ضخامة مؤسستنا .. ولكنه يتمتع بصحة

جيدة يا امي . وقد مكنه ذلك من مواصلة الدراسة ، ومرتبه الآن الف وخمسمائة فرنك .. فقد ارسله ابوه الى المدرسة الثانوية ، ثم درس القانون ، وتعلم الرسم .. أليس كذلك يالوران ؟.. ينبغي ان تبقى لتناول العشاء معنا ..

فأجاب لوران على الفور :

ـ بكل سرور !

وخلع قبعته ، وجلس على سجيته في الحـانوت .. وأسرعت مدام راكان الى المطبخ . أما تيريزا التي لم تقل كلمة واحـــدة ، فأخذت تتفحص القادم الجديد . ولم تكن قد رأت رجلا حقيقيا من قبل ، فأدهشها مرأى لوران بطوله وقوته ونضارة بشرته . ونظرت بشيء من الاعجاب الى جبهته المنخفضة التي يعلوها شعر أسود خشن ، ويبرز من تحتها خدان مليئان وشفتان حمراوان وملامح منتظمة .. فهو فتى وسيم دموي المزاج ، واستقرت عيناها لحظة فوق عنقه القصير الغليظ الكثير اللحم الدال على القوة . ثم تركت نفسها تسترسل في تأمل يديه الكبيرتين المستقرتين فوق ركبتيه ، فرأت له اصابع ضخمة .. ولابد ان قبضته حين يطوى كفه تبدو هائلة ، يستطيع ان يصرع بها ثورا ..

ولوران نموذج صادق لابناء المزارعين .. فهو ثقيل الحركة نوعا، مستدير الظهر ، عنيد وديع السحنة والنظرات .. يشعر المرء ان تحت ثيابه عضلات نامية ، وجسدا قويا لحمه صلب . وجعلت تيريزا تفحصه بفضول ، تنظر تارة الى معصميه وتارة اخرى الى وجهه . وسرت فيها رجفة يسيرة ، عندما وقعت عيناها على عنقه الذي يشبه عنق الثور

واخذ كاميلوس يعرض عليه محتويات مكتبته الصغيرة ، ليبين لصديق الطفولة انه ايضا من المهتمين بالدرس .. ثم كأنما تذكر شيئا غاب عنه ، فقال :

ـ ولكنك طبعا يجب ان تعرف زوجتي .. ألا تذكر بنت خالي الصغيرة التي كانت تلعب معنا في فرنون ؟

فأجابه لوران ، وهو ينظر نحو تيريزا ببساطة :

ـ بل اني عرفت زوجتك منذ اول وهلة ..

وشعرت تيريزا بشيء من القلق الغامض تحت وطأة تلك النظرة النفاذة ، فتكلفت إبتسامة وتبادلت مع لوران وزوجها بضع كلمات .. ثم أسرعت بالانصراف لتلحق بعمتها وهى لا تشعر بالارتياح ..

وبعد قليل جلس الجميع الى مائدة العشاء .. وبعد تقديم الحساء خطر لكاميلوس ان اللياقة تقضى بالاهتمام بصديقه فسأله :

ـ كيف حال أبيك ؟

فأجابه لوران ببساطة تامة :

ـ لست أدرى .. فقد تشاجرنا وانقطعت المراسلات بيننا منذ خمس سنوات ..

فظهرت دهشة من هذا السلوك الشاذ على وجه كاميلوس ولسانه .. فقال لوران :

ـ ان هذا العجوز لديه أفكار عجيبة .. فهو لا يكف عن مقاضاة جيرانه ، وقد خطر له ان يرسلنى الى الكلية ليجعل منى محاميا كى أكسب له قضاياه ضد أولئك الجيران .. فلوران العجوز رجل نفعى ، ومطامعه نفعية للغاية .. وهو يفتش دائما عن ربح يجنيه ..

وزادت دهشة كاميلوس من غرابة أطوار صاحبه ، وسأله :

ـ ولكن ألم تكن راغبا فى أن تغدو محاميا ؟

فأجابه صديقه ضاحكا :

ـ كلا بالطبع .. وقد ظللت سنتين أزعم للشيخ أننى ألقى المحاضرات فى القانون كى أحصل على المائة فرنك شهريا التى خصصها لدراستى .. وكنت فى تلك المدة أعيش مع رسام من رفاق المدرسة الثانوية ، وشرعت أمارس الرسم مثله .. فقد لذ لى ذلك الفن ، والعمل فيه لطيف مبهج غير مجهد ، فكنا ندخن الغليون ونتبادل المزاح والنكات طول النهار !..

وفغر آل راكان أفواههم ، واتسعت حدقاتهم .. أما لوران فقد مضى يقول :

ـ ولسوء الحظ لم تطل هذه اللعبة الجميلة ، لان أبى اكتشف انى أخدعه . فأوقف راتبى بغير سابق انذار ، ودعانى للعودة كى

افلح الارض معه .. فجربت عمل الصور الدينية ، ولكنها تجارة كادت تسلمنى الى الموت جوعا ، فنفضت يدى من الفن وقررت أن أبحث عن عمل . وبحثت ووجدت .. وسيموت الشيخ يوما من الايام . وانا فى انتظار وفاته كى أتمكن من الحياة خلى البال ، ولا اطلب ان اقوم باى عمل فى سبيل العيش ..

وهكذا انطلق لوران يتحدث بصوت غير رنان عن تاريخ حياته ، يصور بتلك الكلمات نفسه صورة واضحة المعالم .. فهو فى أعماق نفسه كسول عارم الرغبات والشهوات ، محدود الافق فى مطامعه ، منتهى أمله فى الحياة اللذات الضحلة السهلة المنال . وجسده القوى الضخم لا يريد ان يقوم بعمل مثمر ، بل يحلم بالاسترخاء المتصل والرغد والعيش الناعم بحيث يأكل طعاما دسما جيدا كثيرا ، وينام نوما عميقا طويلا ، ويرضى أهواءه الى حد التخمة من غير مجازفة أو تعرض لاى نوع من الارهاق المادى او المعنوى

ولهذا السبب كان العمل القانونى يفزعه ، ومجرد التفكير فى فلاحة الارض ترتجف له أوصاله .. فالقى بنفسه فى بحر الفن على أمل ان يجد فيه صناعة لا تتطلب مجهودا . وخيل اليه لخفة وزن الفرشاة ان كسب القوت بها سهل ، وان استعمالها اقل عناء من استعمال الفأس . وكان يحلم عن طريق الفن بمتع رخيصة ، وحياة رضية حافلة بالنساء ، وبالاستلقاء على الارائك والتهام الاطعمة وشرب الخمر . وظل هذا الحلم مسيطرا عليه طول المدة التى أمده فيها والده بالمال . ولكن عندما رأى شبح الفاقة رأى العين ، بدأ يراجع نفسه .. وأدرك أنه لا قبل له بتحمل الحرمان ، وأن مجد الفن عنده لايساوى عنده جوع يوم . ولما طرح الفرشاة جانبا لم يحزن على فراقها ، لان الفن لم يكن عنده غاية بل مجرد وسيلة الى حياة حسية فاسقة مموهة بالمظهر الجميل . وكل ما أسف عليه هو فراق مرسم صديقه الكبير الذى قضى فيه خمس سنوات متمرغا فوق الحشايا والارائك ! وتحسر أيضا على النساء اللواتى كن يقفن على المرسم ليكن نماذج للوحات العبية ، ولا يأبين من يقدم لهن وجبة طعام أو قطعة نقود زهيدة .. فهذه الدنيا الحافلة بالمتع البهيمية ، قد قطعت ما بينها وبينه منذ اضطر للعمل فى سبيل اللقمة

ومع هذا استطاع لوران ان يحمل نفسه بسهولة على اعتياد حياة الوظيفة الجديدة ، بما فيها من رتابة وضخامة ، واعجبه منها على الاقل انها تترك لعقله فرصة النوم ولا تكلفه التفكير . ولم يكن يضيق من تلك الحياة الا بامرين : افتقاره الى النساء ، والطعام القليل الدسم الذى يقدمونه له فى ذلك المطعم الرخيص ..

وكان كاميلوس يصغى لصديقه، وهو يروى تفاصيل حياته الفنية .. وداعب هذا الخيال احلام الشاب الهزيل العليل الذى لم يجرب من الحياة شيئا. وتمثلت له النساء متجردات من ثيابهن امام عينيه وهو يرسمهن ، وساله غير مصدق :

— وهل حقا كان النساء يتجردن من ثيابهن امامك بهذه البساطة ؟

واجابه لوران باسما ، وهو ينظر الى جهة تيريزا التى شحب لونها تحت نظرته :

— طبعا .. وماذا فى ذلك ؟

فضحك كاميلوس ضحكة طفل غرير ، وقال :

— لابد ان هذا شىء غريب .. لابد انك شعرت بالحرج والارتباك ، واخذت بالموقف فى اول مرة ..

وبسط لوران احدى يديه الكبيرتين امامه ، وجعل ينظر فيها كانه يدرس خطوطها . وكانت اصابعه ترتجف قليلا ، وقال كانه يخاطب نفسه :

— فى المرة الاولى اعتقد اننى وجدت المسالة طبيعية للغاية .. فهذا الفن شديد التسرية .. لاعيب فيه الا انه غير مربح . وكانت عندى فى وقت من الاوقات فتاة — نموذج للرسم — بديعة التكوين ذات شعر احمر وبشرة ناصعة وجسد رشيق متناسق وصدر رائع وخصر دقيق ينتهى الى ..

ودفع لوران راسه فجاة ، فرأى تيريزا امامه صامتة ساكنة تنظر اليه بيقظة شديدة ، وخيل اليه ان عينيها السوداوين حفرتان ليس لهما قاع ، ومن بين شفتيها المنفرجتين بدا له حلقها الاحمر شديد الجفاف .. وحول لوران عينيه من تيريزا الى كاميلوس وغالبه

الابتسام .. ثم اكمل عبارته باشارة من كفيه فى الهواء رسم بها بقية ما بداه من وصف تلك الفتاة . وتتبعت تيريزا تلك الحركة بعينيها ، وكانت الطوى قد قلمت ومدام راكان فى الطابق الاسفل تؤدى خدمة لاحد العملاء ..

وبعد قليل رفعت صحاف الطعام عن المائدة ، واطرق لوران برهة كانه يفكر فى شىء هام ، ثم التفت فجاة الى كاميلوس قائلا :

يجب ان ارسم لك صورة !

وابهجت هذه الفكرة كاميلوس وامه .. اما تيريزا فقد ظلت صامتة ، واستطرد لوران قائلا :

— اننا لم نزل فى فصل الصيف ، وموعد الانصراف من المكتب الساعة الرابعة .. ففى استطاعتى ان آتى توا الى هنا وتجلس امامى ساعتين كل يوم .. وبهذا المعدل ستقتضى منا الصورة نحو أسبوع ..

واحمر وجه كاميلوس سرورا وصاح :

— وستتناول العشاء معنا .. وساقص انا شعرى وارتدى حلتى السوداء

وفى هذه اللحظة دقت الساعة ثمانى دقات .. ودخل جريفيه ومشو . وبعد قليل حضر اوليفييه وسوزان ، وقدم كاميلوس صديقه الى المجموعة . وقطب جريفيه جبينه لانه لم يكن يحب هذا الفتى . واما الباقون فاظهروا فتورا ، ولكن لوران لم يكترث وحاول ان يكسب مودتهم .. وقبل الانصراف كان قد اجتذب قلب جريفيه نفسه ، مع انه بحكم رئاسته له كان اصعب الجميع مراسا ..

وفى تلك الليلة لم تحاول تيريزا النزول الى الحانوت . ولم تبارح مقعدها الى الساعة الحادية عشرة . وظلت تلعب وتتجاذب الحديث على غير عادتها ، متحاشية التقاء عينيها بعينى لوران . ولم يكن ذلك عسيرا لان الشاب لم يلق اليها بالا طول السهرة. ولكن حيويته المتدفقة فى قامته ولون بشرته وصوته العريض وضحكته المجلجلة ، اشاعت الاضطراب فى اعصاب المراة الشابة وافقدتها توازنها

الفصل السادس

تمام الصورة

وابتداء من ذلك اليوم ، صار من عادة لوران ان ياتى الى حانوت آل راكان كل مساء . وكان مسكن لوران فى شارع القديس فيكتور فى مواجهة مرفأ النبيذ ، وهو عبارة عن غرفة مفروشة يؤدى عنها أجرا شهريا ثمانية عشر فرنكا ، والحجرة اشبه بحرانة تحت السقف المائل ، يصل اليها النور من كوة فى السقف ضيقة ، ومساحة ارضها لا تزيد على ثمانية عشر قدما مربعا . فمن الطبيعى الا يأوى لوران الى هذا الجحر الا فى آخر لحظة يستطيعها من لحظات الليل ..

وقبل ان تجمعه الصدفة بكاميلوس ، كان لا يدرى كيف يقضى ساعات المساء .. فليس لديه من المال ما يتيح له السمر فى مقاهى باريس ومقاصفها ، ناعم البال بكوب من الشراب .. فكان يتلكأ جالسا فى المطعم المتواضع الذى يتناول فيه عشاءه ، فيدخن غليونا أو غليونين وامامه قدح القهوة الذى يقدم فى ختام الوجبة ، ثم يعود ادراجه، الى مسكنه فى شارع القديس فيكتور ، ماشيا على مهل مترددا بين ارصفة السين وحدائق الشوارع الصغيرة . واذا كان الجو دافئا ، جلس فوق مقعد من المقاعد العامة ليستروح النسمات بعض الوقت ..

ومن هذا نعلم ان متجر الخردوات فى ممر القنطرة الجديدة، صار ملاذا بديعا لامسياته يقدم اليه الدفء والسكينة وعبارات المودة والترحاب والرعاية . وينعم فيه فضلا عن ذلك بالشاى الممتاز الذى تتفنن فى صنعه مدام راكان .. ويظل هناك الى الساعة العاشرة مساء ، مسترخى الاعضاء ، جالسا على سجيته ، يهضم عشاءه على مهل .. ولا ينصرف الا بعد ان يعين كاميلوس فى اغلاق المتجر

و[illegible] اتى معه بحامل الرسم وصندوق الالوان .. فقد تقرر ان يشرع فى رسم صورة كاميلوس فى اليوم التالى . وقامت الاسرة [illegible] شراء القماش اللازم للصورة ، واعد كل شيء بعناية تامة . واخيرا جلس الفنان امام اللوحة البيضاء ، وشرع فى العمل داخل مخدع الزوجين ، لان الضوء هناك كما قال أوفر واصلح للرسم

واستغرق منه رسم الرأس رسما اوليا ثلاث امسيات .. كان [illegible] يحرك قلم الفحم فوق القماش بحذر شديد فى لمسات هينة ، فطريقته ساذجة بدائية ، ويده مترددة ، وفيه حرص على الدقة فى [illegible] الحرف عن النموذج . وفى اليوم الرابع اخرج من صندوق الالوان نقطا صغيرة جدا ، ثم راح يصور بطرف الفرشاة وكأنه يستخدم قلم الرصاص . وفى ختام كل جلسة ، كانت مدام راكان وكاميلوس [illegible] اعجابا عظيما ونشوة كبيرة ، فكان لوران يقول لهما :

ـ اصبرا قليلا .. فالشبه لا يتضح الا فى مرحلة متأخرة من العمل

ومنذ بدأ لوران فى رسم كاميلوس ، وتيريزا تقضى كل الوقت تقريبا فى حجرة النوم التى تحولت الى مرسم .. تاركة عمتها وحدها فى المتجر ، متهزة اول فرصة وتتعلل بأتفه المعاذير لتصعد الى المسكن وتنسى نفسها وهى ترقب لوران اثناء الرسم ..

ترقبه وهى دائما على حالها المعهود من الجد والصمت .. بيد انها كانت اكثر شحوبا من المألوف ، واكثر جمودا ، اللهم الا عيناها فهما تتتبعان حركة الفرشاة فى يد لوران . ولم يكن فى ذلك الذى تشهده عيناها ما يتيح لها تسلية خاصة ، فهى تأتى الى هناك كالمغلوبة على امرها ، تسيرها قوة ما .. ثم تبقيها حيث هى كالمسمرة فى موضعها خلف ظهر لوران

وكان لوران يلتفت احيانا اليها ويبتسم ، ويسألها عن رأيها فى الرسم فقلما كانت تجيبه . وترتجف قليلا ثم تعود الى استغراقها فى نشوتها الصامتة . وفى كل ليلة ، كان لوران وهو عائد بمفرده الى مسكنه فى شارع القديس فيكتور يحاور نفسه محاورات طويلة ، تدور كلها حول موضوع واحد نحو : هل ينبغى أو لا ينبغى له ، ان يتخذ تيريزا عشيقة !

كان يقول لنفسه :

ـ هذه المرأة الشابة على استعداد تام كي تكون عشيقتي في اي وقت اشاء ، فهي دائما رابضة ورائي تنظر الى من ظهري .. تقيس ابعادي .. وترنني . واذا كلمتها ارتعشت، وفي عينيها نظرة غريبة، ولم تستطع ان تنطق بكلمة واحدة .. فمما لا شك فيه انها في مسيس الحاجة الى عشيق ، فهذا شيء ظاهر في عينيها ... وكاميلوس عشيق من نوع واهن للغاية بكل تأكيد ..

ويضحك لوران ضحكة صامتة ، وهو يتذكر صديقه الهزيل الشاحب الوجه ، ثم يستطرد في حواره مع نفسه :

ـ لا شك في انها سأمي الى حد الموت في هذا المتجر الحقير .. وانا شخصيا لا اذهب الى هناك بانتظام الا لانني لا ادري اين اقضي وقتي ، وليس امامي موضع آخر . ولولا هذا لما وقع ظلي على ممر القنطرة الجديدة ، فالجو هناك مشبع بالرطوبة موح بالانقباض. واية امرأة شابة لابد ان تذوي وتموت لو قضت وقتها كله هناك .. وهي ميالة الى ، هذا شيء لاشك فيه ، فلماذا لا أكون انا عشيقها ، فانني اذا لم أقدم على ذلك كانت من نصيب غيري حتما ، لانه لابد لها من رجل ؟

ووقف على ضفة السين يرقب الماء في جريانه ، وهو شارد يسترجع ذكريات صبواته وجولاته :

ـ لم لا ؟ .. سأقبلها في اول فرصة تواتيني .. وانا واثق انها ستسقط على الفور فاقدة الارادة بين أحضاني ..

واستأنف سيره .. وبدأ يشعر بالتردد والاحجام :

ـ ولكنها على كل حال قبيحة الشكل .. لها انف طويل وفم واسع . ثم انا لا اشعر نحوها بالحب ، لا اكن لها اية عاطفة ولعلي ازج بنفسي في مأزق بهذا التهور .. فمن الخير ان اتروى في الامر

ولوران شاب شديد الحذر . لذا ابقى هذه المسألة قيد البحث والمراجعة اسبوعا اخر . واخذ يحسب حساب كل عقبة ممكنة وكل ضرر محتمل . واخيرا قرر الا يقدم على تلك المجازفة الا اذا

، لديه بالدليل القاطع ان تلك العلاقة ستكون باكملها في مصلحته ..

والحقيقة ان تيريزا كانت في نظره قبيحة لانه لم يكن يضمر لها حبا .. ولكن في مقابل هذا كانت عشيقة « اقتصادية » لن تتقاضاه فرنكا ، ولن تكلفه اية نفقة .. ثم ان النساء اللواتي كان في متناول يده ان يغريهن بنقوده المحدودة ، لم يكن مستوى جمالهن اعلى من مستواها، ولم يكن يضمر لهن من الحب اكثر مما يضمره لها ..

فالعامل الاقتصادي هو الذي رجح لديه الاستيلاء على زوجة صاحبه .. يضاف الى هذا انه منذ مدة طويلة لم يتصل بامرأة ، ولهذا فهو مشوق الى الترفيه عن نفسه وتدليل شهواته والتوسعة عليها .. ثم ان مثل هذه العلاقة ليس منها ادنى خطر ، لان من مصلحة تيريزا نفسها ان تخفي معالمها وتكتم أمرها اشد كتمان .. ليتسنى له في اية لحظة ان يقطع الصلة بغير مقاومة من جانبها ، وحتى على فرض ان كاميلوس اكتشف الحقيقة في وقت من الاوقات واقدم على الثورة والغضب ، فضربة واحدة من قبضة يده كافية لرده الى صوابه . وهكذا تراءى للوران من جميع الجوانب ان المسألة هينة رابحة لا غرم عليه فيها ..

ومنذ اتخذ هذا القرار ، وهو يعيش مطمئن النفس واثقا من النصر في انتظار اللحظة المناسبة ، لانه قرر أن يقدم على العمل بحلاوة عند أول فرصة .. ورسم له خياله صورة مزخرفة لامسيات المستقبل التي سيكون فيها موضع التدليل والعناية من جميع افراد أسرة راكان .. فتيريزا ستتولى في الحماء تهدئة الثائر من دمائه ، ومدام راكان ستدلله تدليل الام .. وكاميلوس سيتولى بأحاديثه تسليته حتى لا يسري الى نفسه السأم والملل ..

واوشكت الصورة على الانتهاء ، ولم تسنح بعد اية فرصة لابتداء الهجوم .. اجل ان تيريزا كانت دائما هناك بصمتها وقلقها ، ولكن كاميلوس كان لا يغادر الحجرة اطلاقا . ولوران يكاد يطبق عليه اليأس لانه لا يستطيع ابعاده ولو لمدة ساعة . واخيرا حل اليوم الذي يقول فيه انه سيفرغ من الصورة في اليوم التالي . واعلنت

مدام راكان أنهم سيتناولون العشاء معا ، ويشربون نخب الآية الفنية الرائعة !

وفى اليوم التالى ، عندما وضع لوران آخر لمسة من لمساته على اللوحة ، اجتمعت الاسرة حوله لتبدى اعجابها لشدة التشابه بين الاصل والصورة . وكانت الصورة فى الحقيقة حقيرة الصنع يغلب عليها اللون الرمادى القذر مع بقع حمراء كبيرة . وكان الرسام قد بالغ فى ابراز شحوب نموذجه حتى بدا وجه كاميلوس فى الصورة ابيض ضاربا الى الخضرة كوجوه الغرقى . ولكن كاميلوس كان مبتهجا جدا ، وخيل اليه ان منظره فى الصورة يدل على الاناقة والترفع ..

وبعد ان اشبع كاميلوس هواه من الاعجاب بوجهه وملامحه المصورة بريشة لوران ، اعلن انه ذاهب الى مرفأ النبيذ ليشترى زجاجتين من الشمبانيا لاحتفال الليلة .. وعادت مدام راكان الى المتجر .. وبقى الفنان بمفرده مع تيريزا فى حجرة النوم التى اتخذها مرسما ..

وبقيت المرأة الشابة حيث هى جالسة خلفه ، تحدق فى الفضاء .. وبدا عليها كأنها تنتظر شيئا ما بتوتر شديد . وتردد لوران ، واخذ ينظر الى الصورة ويعبث بأدواته والوانه فى اضطراب. وكان يعلم انه ليس فى الوقت متسع ، فكاميلوس قد يأتى بعد نصف ساعة او اكثر قليلا .. وربما افلتت الفرصة الى الابد من يده

وجمع امره .. ودار حول نفسه دورة مفاجئة ، فصار وجها لوجه امام تيريزا .. وتبادلا النظرات الصامتة بضع ثوان ، ثم انحنى لوران بحركة عنيفة خاطفة الى الامام ، وضم المرأة الى صدره ، وهى جالسة فجعلت هذه الحركة رأسها ينثنى الى الخلف، فاطبق على شفتيها يكاد يمزقهما ويسحقهما بشفتيه واسنانه .. وقاومته فى ثورة ضارية مدى لحظة ، ثم فجأة تلاشت كل مقاومة ، ووقعت شبه مغشى عليها ، على الارض العارية .. ولم يكلف نفسه ان يرفعها من سقطتها ..

وعندما عاد كاميلوس يحمل فى يديه زجاجتى النبيذ مهللا ، كان كل شىء فى الحجرة كما هو .. وتيريزا جالسة فى موضعها على المقعد كأن شيئا لم يحدث ..

الفصل التاسع

انطلاق

ومنذ البداية كان العاشقان يشعران ان علاقتهما ضرورية ، محتومة ، لا مفر منها ، وانها طبيعية للغاية .. وفى أول مرة التقيا فيها بعد موقعتهما الغرامية الاولى ، تحدث كل منهما الى الاخر ببساطة وبغير تكلف ، وتبادلا القبلات خلسة على اشتياق وبغير تحرج او تضرج الوجه بحمرة الخجل .. كان امضاء كل منهما الى الاخر يرجع الى سنوات ماضية .. فهما على سجيتهما تماما فى هذه العلاقة الجديدة ، بكل ثبات وطمأنينة نفس وبلا حياء ..

وفورا على الفور طريقة اللقاء . ولما كانت تيريزا لا تستطيع أن تغادر البيت ، اتفقا على ان يأتى لوران للاجتماع بها تحت سقف الدار . وكانت المرأة هى التى وضعت الخطة ، واقترحتها عليه بصوت هادىء واضح مطمئن .. وسيكون التلاقى دائما فى حجرة نومها .. فلتلك الحجرة ، كما ذكرنا آنفا ، باب يفضى الى دهليز به سلم خشبى يؤدى الى ممر القنطرة الجديدة . وفى استطاعة تيريزا ان تفتح له ذلك الباب فى الموعد المتفق عليه . وفى هذه الاثناء يكون كاميلوس فى مكتبه ، وتكون مدام راكان فى المتجر

ووافق لوران على هذه الفكرة ، فقد كان على الرغم من حذره الشديد يتمتع بضرب من الشجاعة الحيوانية والجسارة .. واغراه هدوء عشيقته وتلهفها على الاجتماع به .. فلما كان اليوم التالى ، انتحل عذرا لمدير ادارته كى يسمح له بالخروج والعودة بعد ساعتين ، ثم أسرع الى ممر القنطرة الجديدة ..

وما ان وطئت قدماه بداية الممر حتى شعر بالحيوان النائم فى دمه يستيقظ ويتحفز للوثوب . وكانت المرأة التى تبيع المجوهرات

المقلدة جالسة فى مواجهة الباب الجانبى الذى سيتسلل منه لوران .. فكان عليه أن ينتظر ريثما تنشغل بعمل أو بشيء . وبعد قليل جاءت فتاة صغيرة لتشترى منها خاتما . فاسرع بالتسلل الى الدهليز ، وصعد السلم الخشبى الضيق المظلم وثيابه تحتك بالجدار القذر من اثر الرطوبة المتراكمة . وكلما وطئت قدمه درجة فى السلم ، شعر بقلبه يثب داخل صدره .. ثم انفتح الباب ورأى على عتبته تيريزا وهى تنتظره ، وشعرها معقود فوق مؤخرة رأسها . واغلقت الباب وراءه ، ثم تعلقت بعنقه ، واحس من رائحة الصابون المعطر تنبعث من اردافها لاول وهلة انها قضت وقتا طويلا هذا الصباح فى الاستحمام ، وانتقاء احسن ثيابها البيتية وارقها وانصعها بياضا ..

ودهش لوران فى هذه المرة لأنه اكتشف أن عشيقته جميلة ! حتى لقد خيل اليه انه لم ير المرأة الماثلة امامه من قبل .. فهى قوية البنية ، مرنة الحركة ، كل شيء فى تكوينها قوى منطلق .. تعانقه بقوة ، وتتوالى على صفحة وجهها ومرآة عينيها عشرات من الانفعالات القوية الواضحة السافرة الغنية بالعاطفة والحيوية .. ولها ابتسامة معبرة منتشية يتغير بها منظر سحنتها كله .. التى امامه الآن امرأة عاشقة ، استطاع العشق القوى العميق ان يغير معالمها بما ابتعثه من قوى دافقة ، وما فجره من ينابيع فى أعماق كيانها الذى كان حتى اليوم خامدا مطمورا مجهولا من الدنيا

وشعر لوران بالزهو الشديد لان انوثتها الطاغية كانت نائمة لم توقظها احضان كاميلوس الضعيفة الخائرة ..

ولم يكن لوران قد عرف من قبل امرأة من هذا الطراز .. فخالط زهوه بنفسه شيء من القلق والخوف

وفى اليوم التالى ، بعد أن ثاب الى هدوئه وطريقته المألوفة فى المراجعة والموازنة وحساب الارباح والخسائر ، اخذ يسأل نفسه هل من الخير له ان يعاود زيارة تلك العشيقة التى أسكرته بقبلاتها المحمومة وانوثتها المنطلقة .. وقرر فى بداية الامر ان يثبت للغواية ويبقى فى البيت . وبعد قليل بدأ يضعف لان صورتها وهى بين ذراعيه اخذت تتراءى لعينيه .. وحاول أن يغض النظر عن تهاويل

محياها ، ولكن خياله لم يرحمه .. فهو ان لم يتمثل امامه ذراعيها مفتوحتين لاحتضانه ، رأى وميض عينيها اللتين تشعان الحب والاستسلام والرجاء .. فانهارت مقاومته ، وذهب الى المتجر كعادته ، ورتب معها خلسة موعدا للقاء فى ضحى اليوم التالى ، على غرار الموعد الاول ..

ومنذ ذلك الحين، صارت تيريزا جزءا لا يتجزأ من حياته .. فلئن لم يكن راضيا بعقله عن علاقته بها كل الرضا ، الا انها كانت مسيطرة عليه سيطرة تامة .. وكثيرا ما كان يتصبب عرقا من شدة الخوف والتفكير فى العواقب ، ثم لا تلبث تلك المخاوف أن تنهار امام رغبته المتقدة .. فتعود العجلة الى الدوران ، وتعود الاجتماعات الى التعاقب بمزيد من الانتظام والتواتر ..

اما تيريزا فلم تكن من جانبها تعانى شيئا من هذا القلق أو تلك الشكوك والاوهام ، فهى تمنحه نفسها بلا احتراز وبلا تفكير .. مطيعة مع عاطفتها وانوثتها لاتسألهما الى اين ينتهى بها هذا الانسياق .. مثلها كمثل الماء الذى كان مكبوتا فى جوف الارض ، ثم نبشت عن وجوده يد نابش ، فتدفق ينبوعا جريان بتدفقه ، ولا هم له الا تعويض مافاته من احتجاز قاتم فى جوف الثرى !

وكانت فى بعض الاحيان تطوق عنقه بذراعيها ، وتضع رأسها على صدره ، وتقول له بصوت متهدج :

ـ آه لو علمت كم قاسيت فى ماضى حياتى ! كنت اعيش فى حجرة مقفلة ساخنة الهواء رطبة مع انسان عليل .. وكنت منذ طفولتى انام فى فراش كاميلوس ، فاجتهد اثناء الليل ان ابتعد بجسمى عن جسمه قدر المستطاع ، لان رائحة جسمه المريض كانت تصيبنى بالغثيان . ولكنه كان عنيدا خبيثا يأبى أن يتناول الدواء الا اذا شاركته فيه ، فكنت افعل ارضاء لعمتى .. والله اعلم كم من انواع العقاقير الكريهة شربت ، حتى اننى لا ادرى كيف لم تقتلنى هذه الخبائث ! لقد جعلانى قبيحة وخيمة الشكل والحياة والعقل .. سرقا منى كل حقوق انوثتى .. ولذا احسنك بعمق لن تقدر ابدا ان تحبنى بمثله !

وبكت وقبلت لوران ، ثم استطردت :

ـ انا لا اتمنى لهما السوء ، فقد ربياني .. ابواي وكفياني شر الحاجة . ولكني كنت احصل على هذا الايواء المضياف ، ان يسدلني تحت رحمة المقادير ! كنت اتحرق شوقا الى الهواء الطلق ، واتمنى وانا طفلة ان اترك لاتجول حافية القدمين ، اتسول اللقمه واعيش كما يعيش الغجر والبوهيميون . وكنت أعلم ان الدم الافريقي الحار يجري في عروقي .. وانا الان اشعر بالغثيان كلما تذكرت الايام الطويلة التي قضيتها في حجرة كاملوس ، وهو يئن ويتحسر .. وانا لا أجسر على الحركة ، لان عمتي كانت تؤنبني ، اذا احدثت أقل صوت . فلما كبرت قليلا وقمنا على شاطىء السين في ذلك البيت الريفي شعرت ببعض السعادة .. ولكنهم لم يتركوني هناك طويلا فسرعان ما أتوا بي الى هنا ، ودفنوني حية في هذا المحجر البغيض ..

وزفرت تيريزا ، ثم شددت احكام ذراعيها حول عنق عشيقها ، وقالت :

ـ لا يمكن ان تتصور كم اساءوا الي وغرسوا في نفسي الشر ، الام والابن وصحابهما .. علموني النفاق ، والكذب ، والنعومه المزيفة ، واغضاء الطرف ، وكتمان الاحساس . واعتقد انك عندما رأيتني حسبت أنني بلهاء .. كنت ابدو بلهاء ، اليس كذلك ؟ كنت دائما شاردة افكر في أمل واحد للخلاص : ان القي بنفسي في مياه السين يوما ما . ولست ادري ما الذي حملني ارضى بالزواج من كاميلوس ، لم ابد اعتراضا ، وتزوجته بلا اكتراث .. والحقيقة انه كان من الطفولة باستمرار بحيث أثار اشفاقي وعطفي ، فكنت عندما العب معه اشعر باصابعي تغوص في لحم اطرافه كانه صلصال .. فقبلته زوجا لان عمتي اعطتني اياه ، ولانني وطنت نفسي على الا اغير شيئا من طريق حياتي بنفسه .. وفعلا وجدت في زوجي بعد الزواج ما كنت اجده قبله من الغلام المريض الذي شاركته الفراش منذ السادسة من عمري .. فهو بعينه في ضعفه وخوره وانانيته ورائحته التي تثير الغثيان .. وانا أروي لك هذا كله حتى لا تشعر بالغيرة ..

وجلست تيريزا وقد غرست اصابعها في يدي لوران الكبيرتين ، وراحت تنظر بهيام الى كتفيه العريضين وعنقه الغليظ ، ثم هتفت :

ـ اما انت ! فاحبك .. لقد احببتك منذ اليوم الذي اتى بك كاميلوس الى المتجر . ولعلك في أعماق نفسك تزدريني ، لانني اسلمت لك نفسي بلا مقاومة ، وعلى الفور .. وانا نفسي لا ادري كيف حدث هذا .. فانا مفكرة حاده الطبع . واول ما خطر لي عندما قبلتني لاول مرة ، ان اضربك بشيء على ام راسك . ولكني لم اشعر الا وراسي يدور ثم الفيت بي على الارض .. هنا في هذه الحجرة .. اتدري اني شعرت ببغضي الاول ، وقد انقلب حبا جنونيا ، لانك كنت جريئا متلهفا .. احدث من غير ان تطلب .. ثم تنزلق بي فتحملني الى الفراش على بعد خطوتين !.. هذا مع اني طول مدة ترددك لرسم الصورة ، كنت اشعر بقوة اشبه بالكراهية من نحوك .. لان منظر جسمك القوي كان يثير اعصابي ، ويسبب لي العذاب ، واشعر كان راسي خاو ، واني عاجزة عن التفكير واعصابي متمددة تكاد تنفجر .. وكان قوة القدر نفسها تشدني الى موضعك ، رغم ما يسببه لي قربك من عذاب . وكنت اعلم ان موقفي سيىء ، لاني ابدو كمن تستجدي منك القبلات .. فلو انك لمستني في اية لحظة لسقطت على الارض . وكلما نظرت الي كنت ارتجف واتصبب عرقا ، وكل اعماقي تنتظر على مضض ان تتنازل فتضمني بين ذراعيك وتاخذني اليك ..

وسكتت تيريزا .. وآذن ذلك اللقاء بانتهاء ..

وفي كل لقاء جديد كانت فنون جديدة من النشوة تطرأ عليهما .. لان المرأة العاشقة كانت تتفنن في ابتكار الجرأة وخلع العذار ، لا تخشى شيئا ، ولا تتردد امام شيء .. تجد في تهتكها زهوا !

وعندما يجيء موعد عشيقها لم تكن تتخذ ادنى حيطة سوى ان تخبر عمتها انها ستصعد الى حجرة نومها لتستريح قليلا .. ومتى جاء كانت تمضي في الحجرة على سجيتها ، فتسير وتتكلم وتتحرك بكل حرية ، ولا تفكر في اجتناب الضوضاء وكان لوران في بداية العلاقة ، يصاب بالذعر احيانا ويهمس

ـ احذري ياتيريزا !.. ما كل هذه الضجة ؟ .. مدام راكان قد تصعد في اية لحظة لاستطلاع الامر

فتجيبه ضاحكة .

ـ هذا هراء ! مالك ترتجف هكذا .. انها كالمسمرة فى مقعدها بالمتجر ، ولا يمكن ان تفارقه لانها تخشى السرقة .. ثم فلنعرض انها صعدت . لا باس .. فى استطاعتك ان تختبىء بسرعة ، فهى لا تقلقنى ولا أريد ان افكر فيها ولا فى اى شىء ونحن معا ..

وشيئا فشيئا تعود لوران هذا الجو ، وتقبل تلك الاجتماعات المختلسة فى وضح النهار ، وفى حجرة نوم كاميلوس ، وعلى بعد خطوات معدودات من مدام راكان العجوز . وكانت عشيقته تؤكد له دواما ان الخطر لا يحيق بمن يواجهونه بشجاعة . وكانت فى ذلك على حق ، فليس للعاشقين من مكان للقاء آمن من هذا المكان .. ففى هذه الحجرة لن يفكر احد فى البحث عنهما ، وهكذا اتاحت لهما تلك الخطوة ان يشبعا هواهما فى انطلاق لا نظير له ..

ولكن حدث ذات يوم ان صعدت مدام راكان فعلا ، لان العجوز خشيت ان تكون بنت اخيها مريضة بصورة جدية . وكانت المراة الشابة قد قضت فى ذلك اليوم قرابة ثلاث ساعات بحجة الراحة .. وبلغ من جسارتها انها لم تغلق باب حجرة النوم بالمزلاج ، وهو ذلك الباب المفضى الى حجرة الطعام

فلما سمع لوران خطوات مدام راكان الثقيلة على الدرج الخشبى وهى صاعدة ، استولى عليه الذعر واخذ يبحث بسرعة عن سترته وقبعته . ولكن تيريزا اخذت تضحك من غرابة شكله فى تلك اللحظة، وقبضت على ذراعه واكرهته على الانكماش فى ركن الفراش تحت قدميها ، وقالت له بصوت هادىء :

ـ لا تهتم بشىء .. ابق هنا ولا تتحرك ..

وكدست فوقه ثيابه التى كانت مبعثرة . وفوق ثيابه بسطت ثوبها الذى كانت ترتديه فى المتجر ، وخلعته عند صعودها .. ثم اضطجعت فى فراشها بكل اطمئنان وهى نصف عارية وشعرها مشعث ووجهها متوهج ..

وفتحت مدام راكان الباب بلطف ، واقتربت من الفراش وهى تسير على اطراف اصابعها .. وتصنعت المراة الشابة النوم ، اما لوران فكان يتصبب عرقا ..

وسألت مدام راكان بنت اخيها بحنان :

تيريزا .. هل انت مريضة ياطفلتى ؟

ففتحت « طفلتها » عينيها ، وتثاءبت ، وتقلبت فى مضجعها ، وشكت من صداع حاد ، ثم طلبت من عمتها ان تتكرم بتركها لتنام مرة اخرى . فانصرفت العجوز بهدوء كما دخلت . وما ان اغلقت الباب خلفها حتى تعانق العاشقان وهما يغالبان الضحك ، وقالت تيريزا بلهجة الانتصار :

ـ هاانت ذا ترى الآن انه ليس لدينا ما نخشاه منهما .. فهما اعميان .. لا يريان شيئا لانهما ليسا عاشقين !!

وفى يوم آخر خطر للمراة الشابة خاطر غريب .. وما اكثر طرائفها التى تبدو بها احيانا كالمجنونة : فقد كان القط فرانسوا مقعيا فى وسط الحجرة تماما يرقب العاشقين بعينيه المستديرتين ، وهو صامت لا يتحرك ، وكانه يدرسهما باهتمام .. فلا تطرف عينه ولا تتحول عنهما . فصاحت تيريزا قائلة للوران :

انظر الى فرانسوا ! سيخيل اليك على الفور انه يفهم مانصنع، وانه فى هذه الليلة سيمضى الى كاميلوس بكل شىء .. اليس مضحكا ان يشرع فرانسوا فجاة فى الكلام اثناء سهرتنا فى الدكان ؟ واؤكد لك ان لديه عنا قصصا مثيرة يرويها ..

وكانت فكرة اقتدار فرانسوا على الكلام تروق لها وتبهجها .. اما لوران فنظر الى عينى القط الكبيرتين الخضراوين ، وسرت فى اوصاله رجفة . واستطردت تيريزا :

ـ وهاك ما سيفعل فرانسوا : انه سيقف فجاة ويشير باحدى قائمتيه الاماميتين الى وبالقائمة الاخرى اليك انت ، ويقول : «هذا السيد وهذه السيدة يتبادلان قبلات حارة فى حجرة النوم ، واشياء اخرى لست بحاجة الى ذكرها . وكانا لايرعيان لوجودى حرمة .. وبما ان علاقتهما الغرامية تشمئز لها نفسى ، فانا اطلب منك ان تزج بهما فى السجن كى اتمكن من النوم بهدوء قرب الظهر ! »

واخذت تيريزا تقلد القط فى مرح الاطفال ، وتمد اصابعها ، وتحرك كتفيها ..وفرانسوا ينظر اليها ولا يتحرك ، وتكاد الشفايا الصغيرة حول فمه ان تشبه ضحكا مكتوما .. اما لوران فانزعج لهذا التخيل ، ووثب من الفراش ، فطرد القط من الحجرة وهو يشعر بخوف حقيقى ..

الفصل الثامن

طمأنينة

شعر لوران أنه فى غاية السعادة ، فهو يقضى امسياته فى المتجر ، وغالبا ما يعود من المكتب مع كاميلوس . وكانت مدام راكان قد شعرت نحوه بحب أموى واضح ، حتى انها أكدت له تخصيص مكان على مائدة الاسرة باستمرار . ولعل الشاب كان يمثل فى سريرتها موطنها الاصلى ، ويثير لديها ذكرياتها الحبيبة التى تفتقدها كل عجوز نازحة الى موضع غريب ..

واستغل الشاب تلك الضيافة الكريمة المتاحة له أحسن استغلال ، فعند مغادرة المكتب يحرص على التنزه سائرا على قدميه بين أرصفة السين فى صحبة كاميلوس . ويثرثران فى موضوعات كثيرة الى أن تتفتح شهيته للأكل تفتحا تاما ، فيتجهان الى ممر القنطرة الحديدة ، ويدفع لوران باب المتجر وكأنه صاحب الدار . ويضطجع فى مقعد ويمد ساقيه الى مقعد آخر ، ويدخن غليونه وينشر بصاقه وكأنه فى بيته أو بيت أبيه ..

ولم تكن وجود تيريزا يضايقه على الاطلاق ، لانه يعامل المرأة الشابة معاملة ودية مستقيمة لا تلعثم فيها أو تحرج .. فيضاحكها ويوجه اليها عبارات المجاملة المعتادة فى مثل تلك المجتمعات العائلية من غير أن ينم وجهه عن شىء . وكان كاميلوس يضحك من تحرج زوجه واحاتتها عن عبارات صديقه بمقاطع مقتضبة . وكان يعتقد أن تيريزا ولوران لا يطيق احدهما الآخر ، حتى انه وجه الى تيريزا اللوم ذات ليلة لما اسماه فتورا غير لائق نحو لوران ! ..

وهكذا صح ما تنبأ به لوران بحذافيره : فها هو ذا قد أصبح عشيق الزوجة ، وصديق الزوج ، والطفل المدلل للأم العجوز

تدعمه بأطايب الطعام والشراب . فلم يكن فى أية فترة من حياته مكتفى الحاجة كما هو الآن .. جميع رغباته وشهواته تجد شبعها ، فكأنه سلطان يعيش فى عصر الحريم . والادهى من هذا أن وضعه فى الاسرة كان يبدو له طبيعيا للغاية ، فيتحدث طول الوقت مع كاميلوس بألفة تامة .. من غير غضب ، ومن غير أن يساوره أدنى شعور بالندم ، بل انه لم يكن يراقب حركاته وكلماته لفرط ثقته بحذره الفطرى وتحكمه فى سلوكه ، فلم تبدر منه غلطة واحدة تثير الريبة فى أمره .. فعشيقته حين تكون فى المتجر تصير امرأة مثل أية امرأة أخرى ، فلا يفكر فى تقبيلها .. وكأنها غير موجودة بالنسبة له ، لانه كان يعلم انه لو فضح نفسه بحركة واحدة فلن يعود الى تلك الجنة . وكان هذا الجزاء القاسى كافيا لابقائه عند حده . ولولاه لما اهتم اطلاقا بحزن كاميلوس أو حزن أمه . فهو يتصرف ببساطة التصرف الطبيعى الذى كان يبديه أى رجل آخر يهيمن عليه الجوع والفقر . وهذا هو سر اخلاده الى الهدوء وتمسكه بالطمأنينة التى ينعم بها هناك من غير مجهود

أما تيريزا فهى أشد عصبية منه ، ولهذا فهى أكثر توترا ، ومضطرة الى بذل مجهود لتمثل دورا .. ولكنها فى الواقع كانت تمكن من اداء الدور اتقانا عظيما ، والفضل فى ذلك الى النفاق الماكر الذى اكتسبته بحكم ظروف نشأتها . فقد ظلت زهاء خمس عشرة سنة ، وهى تكذب وتخنق عواطفها وتئدها ، مسخرة كل ارادتها فى أن تبدو بليدة الحس جامدة العواطف . فلم يكن من العسير عليها بعد ذلك أن تتصنع الجمود والموات ، وتحيل وجهها الى قناع مثل أقنعة الموتى ..

وعندما كان يحضر لوران كان يجدها رزينة ووقورا مشدودة الملامح ، بحيث يبدو أنفها أطول من مألوف عهده ، وشفتاها أرق من المعتاد . فيكون منظرها عندئذ أقرب الى الفظاظة ، والكآبة تحيطها بسياج يجعل الوصول اليها والتبسط معها عسيرا .. بيد أنها فى الوقت نفسه لم تكن تبالغ فى هذا التصنع ، فلا تتجاوز به كثيرا من حدود انطوائها المعهود فيها

وفى أعماق نفسها كانت تجد لذة مريرة فى خداع كاميلوس ومدام

راكان وادخال الغفلة عليهما . ولكنها لم تكن تشعر بما يشعر به لوران من الارتياح لما يناله من اشباع غرائزه ورغائبه بلا ندم أو تحرج . بل هى فى الواقع كانت تعلم انها ترتكب اثما .. مهما مرهوة بهذا الاثم . وكم من لحظة راودتها نفسها أن تنهض من على مائدة العشاء فتقبل لوران على شفتيه كى ترى زوجها وعمتها انها ليست دميمة ولا كمية مهملة ، وان لها عشيقا وسيما فتيا ..

وفى بعض الاحيان ، كانت موجات من الفرح تطغى على ذهنها ، فتشل قدرتها على التمثيل ، وتضطرب بغير مناسبة مترنحة بافتيات مرحة ، بشرط الا يكون عشيقها موجودا حتى لا تفضح نفسها ..

وكانت هذه الانطلاقات الفجائية المرحة تفتن مدام راكان التى كانت مهمومة فيما مضى لافراط بنت اخيها فى الجد . ونظرت بعين الرضا الى اهتمام تريزا اخيرا بشراء أصص للازهار زينت بها نافذة حجرة نومها ، ثم زاد اقبالها على الحياة فغطت جدران المخدع بأوراق جديدة زاهية اللون .. وطلبت بساطا جديدا وستائر وأثاثا من خشب الورد ..

وكل هذا البذخ من اجل لوران ..

وكانما كانت الطبيعة والظروف قد اتفقت على ان تجعل هذه المراة لهذا الرجل ، وان تدفع كلا منهما بين احضان الاخر .. فالمراة القوية الموءودة العواطف ، والرجل القوى الذى يعيش بتكوين حيوان فتى ، بينهما رباط وثيق يزيد على الايام اشتدادا . فكل منهما يكمل الاخر ، ويحمى الاخر . وفى المساء ، على مائدة العشاء وفى ضوء المصباح الشاحب كان المتفحص يستطيع ان يرى مبلغ ما بين هاتين السحنتين من توافق طبيعى رغم المظهر الخادع

وانها لامسيات هادئة لطيفة يشيع فى جوها الساكن ود مستطاب .. يجلس فيه الاربعة الى المائدة فيأكلون بشهية طيبة ، ثم يتحدثون بعد تقديم الحلوى عن كل تفاصيل ذلك اليوم ، وعن ذكريات الامس وآمال الغد . وكاميلوس يبدو شغوفا بلوران ، ولوران يجزيه على مودة بمودة .. فبين الشابين تيار لا ينقطع من مصطلحات التدليل وايماءات المودة ونظرات الاعزاز . ومدام راكان بوجهها الهادىء تفيض السلام والهدوء على الهواء الذى يتنفسه اطفالها الثلاثة ..

وكان فى وسعك ان تقول ان هذه الجمعية كانت نموذجا مثاليا للصفاء والاخلاص !

وكانت تيريزا ترقب فى هدوئها وصمتها كل شىء .. وهى فى اعماقها تضحك ضحكات وحشية وتسخر بكل كيانها من الموقف ، الوقت الذى يحتفظ فيه وجهها بسكون الاسارير التام والصورة على بعساطلسة بانها منذ ساعات قلائل كانت فى الحجرة المجاورة مسدلة الشعر عارية النحر ملقية بنفسها فوق صدر لوران . والمسترجع وتجتر كل تفاصيل ساعة غرامها بعد ظهر ذلك اليوم وتمارس فى تلذذ بين ذلك المشهد المضطرم والمشهد الميت الذى يقع الان تحت سمعها وبصرها ..

اه ! كم تمعن فى خديعة هذين الانسانين الطيبين ! وما اسعدها بخديعتهما تلك الخديعة الظافرة التى لا حياء فيها ! ولم يكن ذلك الا على بعد خطوتين ، وراء ذلك الحاجز الرقيق . والان ها هو ذا عشيقها وقد ارتد وكانه غريب عنها تماما .. مجرد صديق لزوجها ، أشبه بمسئول أبله ثقيل الظل ينبغى الا تلقى اليه بالا ..

وكانت هذه المهزلة المتناقضة الحواشى والفصول ، تجعلها تتأرجح بلا هوادة بين قبلات النهار المحترقة الحارقة ، وبين عدم المبالاة المموه فى الليل ، فيثير ذلك فى عروقها الشابة مزيدا من الاشواق الطائشة !

وعندما كان يحدث فى بعض الاحيان أن تنزل مدام راكان هى وكاميلوس الى المتجر ، كانت تيريزا تثب من موضعها كالهرة وتنقض بشفتيها فتضغط فى صمت على شفتى عشيقها بحرارة عاتية . وتظل مطبقة عليهما وهى تلهث الى أن تسمع وقع أقدام تصعد الدرج الخشبى . وعندئذ ترتد بحركة مفاجئة إلى مجلسها متخذة مظهر الوجوم كما كانت . ويستأنف لوران بكل هدوء ما انقطع من حديثه وسمره مع كاميلوس ، وكان ما وقع فى تلك الفترة كان نوعا من ومض البرق الصاعق الصامت الخاطف للابصار فى سماء ساكنة من قبل ومن بعد !

وفى أيام الخميس كانت الامسيات تتصف بمزيد من الحيوية ، فلوران الذى يكاد يموت ضجرا بتلك السهرات كان يحرص على

الحصور مع اظهار الحبور والتلطف الى الجميع ٠٠ لانه كان يعتبر ذلك تدبيرا من تدبيرات الحيطة ، فهو حريص على أن يعرفه أصدقاء كاميلوس ويحبوه ٠٠ ويحمل نفسه على التجلد لهذر جريفيه وميشو العجوز الذى يعيد أقاصيصه بحروفها التى لا تتغير عن جرائم القتل الغامضة ومغامرات اللصوص التى عاصرها ٠ وأما جريفيه فيتحدث دائما عن العمل والموظفين والرؤساء ٠ ولكنه كان يجد شـــيئا من الراحة بالنســبة لاوليفيبه وزوجته سوزان ٠٠ وكان فى كل ليلة أول من يطالب بابتداء مباراة الدومينو

وفى أمسيات الخميس هذه ، كانت تيريزا تحدد يوم وســاعة اللقاء بينها وبين عشيقها ٠ وتنتهز لحظة اللغط والاضطراب التى تسود انفضاض السهرة وخروج الضيوف ، وقيام هـــدام راكان وكاميلوس بتوديعهم الى الباب الخارجي المفضى الى الممر ، فتقترب الشابة من لوران وتتعلق بعنقه وتهمس فى اذنه بالموعد

واستمرت هذه الحياة المتأرجحة بين الاضطراب والاســتمتاع والتمويه ثمانية أشهر ، قضاها العاشقان فى نشوة كاملة ورضا تام عن الدنيا ٠٠ لا يتمنيان شيئا وراء دوام تلك الحال

الفصل التاسع

حوائل

وذات نهار كان لوران على أهبة مغادرة مكتبه بحسب الاذن الممنوح له من قبل ، ليلتقى بتيريزا ثم يعود بعد ساعتين ، واذا برئيس الكتبة يرسل اليه ويخبره أنه ليس فى استطاعته مستقبلا أن يتغيب عن مكتبه هاتين الساعتين ، وأن الادارة قد لاحظت اسرافه فى انتحال المعاذير للخروج أثناء العمل ٠٠ فقررت فصله ان عاد الى ذلك !

وعاد لوران الى مقعده ، وقضى بقية ذلك النهار نهبا لليـــأس ٠٠ فهو مضطر الى كسب معاشه بهذا العمل ، ولا يسعه أن يتركهـــم بمسلوبه ٠ فلما ذهب فى المساء كالمعتاد مع كاميلوس الى المتجر ، قرأ الغضب والاستياء فى وجه تيريزا ونظراتها ٠٠ وعـــذبه ذلك تعذيبا شديدا ، ولم يدر كيف يبرر لعشيقته ما فرط منه من اخلاف الوعد ٠ وفى الوقت الذى انصرف فيه كاميلوس مع أمه لاغلاق أبواب المتجر ، اقترب لوران من تيريزا على وجه السرعة ، وقال لها بصوت خافت :

- لم يعد فى استطاعتنا أن نتقابل بعد الآن ، لان رئيسى يأبى أن يأذن لى فى تغيب تلك الفترة أثناء العمل اليومى ٠٠

وعاد كاميلوس فى هذه اللحظة ، فكان على لوران أن يمضى من غير أن يقدم مزيدا من التدبير ، وترك تيريزا مضطربة ٠٠ اشد اضطراب ٠٠ وطاش تفكيرها وأبت أن تصدق أن شيئا ما يمكن أن يعترض طريق ملذاتها ، فقضت ليلة ارق طويلة تفكر فى مشروعات خيالية مسرفة تمكنهما من الاجتماع بعشيقها فى المستقبل ٠ فلما كان مساء الخميس التالى ، لم تستنح فرصة التحدث الى لوران أكثر من دقيقة واحدة ٠٠ وكان رأس السهم فى قلقهما وجذعهما أنهما فى حيرة من أمرهمـــا

لا يدريان أين يستطيعان ان يلتقيا لمناقشة مسألتهما وتقليبها على بساط البحث للوصول الى تفاهم واضح • وتحت ضغط الضرورة حددت الشابة لصاحبها موعدا فى يوم معين وساعة معينة للحضور نهارا • ومرة أخرى تخلف العشيق ولم يستطع الحضور •• ومنذ تلك اللحظة وفى رأسها فكرة واحدة : أن تراه بأى ثمن ..!

ومر أسبوعان طويلان كاملان ، لم يجتمع فيهما لوران بتيريزا •• فبدأ يشعر بمدى لزومها له • فما اعتاده من اللذات الحسية قد انشأ لديه ألوانا من الرغبة الحادة والادمان الملح ، وقضى هذا الشوق المحموم على ما كان باقيا لديه من الاضطراب وعدم الارتياح •• فصار طلبه الان لعناقها أشبه شىء بطلب الحيوان الجائع والبهيم المتضور للوجبة التى كان يعهدها بمذاق معلوم ومقدار معلوم فى أوان معلوم. وعادات الدم والاعصاب تنقلب فى الحاحها وسطوتها وتحكمها مثل عادات المعدة • وكما يجن جنون الحيوان وينقلب الكلب مسعورا تقدح عيناه بالشرر ، اذا انتزعت طعامه من بين فكيه وابعدته عن متناوله ، فلا يبالى فى سبيل استرداده أن يقتحم الاهوال ، ولا يعرف الحذر أو الصبر ، كذلك كان حال لوران وقد أبعدوا عشيقته عن أحضانه وحرموه منها وهو يراها كل ليلة وكأنها الغريبة عنه راى العيان •• فلم يبق له صبر •• ولم يبق له رشد •• وانما هو غريزة عمياء ورغبة طائشة ودم يفور •• !

وما من شك فى أنه كان حريا أن يقترف حماقة يندم عليها لو لم يتسلم رسالة من تيريزا تطلب اليه فيها ان يبقى فى بيته فى يوم معين متعللا بالمرض ، فلا يذهب الى المتجر بعد الخروج من عمله •• لانها ستوافيه فى مسكنه فى نحو الساعة الثامنة

فلما غادر المكتب تخلص من صحبة كاميلوس ، زاعما أنه متعب ويروم فى هذه الليلة ان يأوى الى فراشه فورا ••

وبعد العشاء أدت تيريزا الجانب الصغير من التمثيل ، فزعمت أن عميلة قد انتقلت من الحى وعليها بقية حساب لم تدفعه فقررت ان تذهب اليها فى تلك الليلة لتحصيل الدين • ولما كانت العميلة تقيم فى منطقة باتينيول البعيدة ، فقد حاولت مدام راكان وكاميلوس أن يصرفاها عن تكبد مشقات هذه الرحلة •• بيد انها أصرت فلم يعارضاها

وخرجت الشابة على عجل الى مرفأ السين •• وكانت تتخبط فى سيرها بين الازقة الرطبة الموحلة المزدحمة بأشخاص نصف مخمورين، حتى ظهرت قطرات من العرق على جبينها ، وارتفعت حرارة يديها ، فأصبح منظرها منظر امرأة سكرى • ثم أخذت تصعد بكل سرعة سلالم البيت الذى يسكن لوران حجرة فى أعلاه • وبعد أن وصلت لاهثة الى الطابق السابع من السلم ، رأت وجه لوران مطلا عليها من حاجز السلم فى الظلمة التامة وهو يبتسم

ودخلت تيريزا الحجرة الصغيرة ذات السقف المائل ، وكانت من الضيق بحيث يحتك جسم أى شخصين يتحركان فيها •• وبسرعة نزعت قبعتها من فوق رأسها واستندت الى الفراش المرتفع فى نصف اعياء ، وكانت الكوة المفتوحة فى السقف تصب انساما رطبة عليلة فوق الفراش الذى يكاد يحترق من الحرارة ••

وبقى العاشقان هناك برهة كأنهما دفينان فى قاع جب ، ولم يشعرا بشىء مما حولهما الى أن سمعت تيريزا فجأة ساعة كنيسة قريبة تدق عشر دقات • فنهضت على عجل واستوت جالسة على حرف الفراش ، واخذت تنظر فى الحجرة الضيقة التى لم تكن قد تبينت محتوياتها بعد • وسوت شعرها وثيابها ، ووضعت قبعتها على رأسها ، واحكمت رباطها ثم قالت ببطء :

ـ الان يجب أن اذهب ••

فركع لوران بجوارها وضم يديها بين يديه ، فقالت من غير ان تتحرك :

ـ وداعا ••

فصاح كالملدوغ :

ـ لا تقولى وداعا •• اضربى موعداً محددا •• قولى متى ستأتين فى المرة القادمة ؟

فثبتت عينيها فى عينيه وقالت :

ـ اتريدنى ان أكون صريحة ؟ وهو كذلك •• الحق اقول لك اننى و قرارة نفسى لا اعتقد انى سآتى مرة أخرى ••

ـ لماذا ؟

ـ لانه ليس عندى مبرر للتغيب ••• وقد عجزت عن تلفيق عذر آخــر

ـ أهذا يعنى اذن نهاية كل شيء ؟

ـ لابد لى أن أذهب الان ...

ـ وأطرق لوران مفكرا .. وكان تفكيره منصبا على كاميلوس . وأخيرا قال من غير أن يذكر اسمه صراحة ...

ـ ليس عندى ضده شيء .. ولكنه فى الواقع يعوق سبيلنا بصورة لا تطاق .. أفلا تستطيعين أنت أن تخلصينا منه ، فترسلينه مثلا فى رحلة الى مكان ما بعيدا عن هنا ؟

فأجابته المرأة الشابة قائلة وهى تهز رأسها :

ـ أرسله فى رحلة ؟ وهل تعتقد ان رجلا بهذا الشكل يمكن أن يقدم على الاسفار ؟ .. ان هناك رحلة واحدة فقط لا يؤوب منها مسافر .. ولكنه سيدفننا جميعا ، لان هؤلاء الناس الذين لا يربطهم بالحياة الا خيط واحد لا يموتون أبدا

وساد الصمت ، وزحف لوران على ركبتيه ، فالتصق بعشيقته ووضع رأسه فوق صدرها ، وقال لها :

ـ لقد رأيت حلما .. حلما جميلا .. كنت أحلم هذا الحلم دائما ..

ـ أى حلم ؟

ـ أن أقضى معك ليلة كاملة .. فأنام بين ذراعيك وتوقظنى فى الصباح قبلاتك .. أريد ان اشعر اننى زوجك .. اننى سأكون يوما زوجك .. أتفهمين ما أعنيه ؟

فأجابته تيريزا وهى ترتعد :

ـ نعم .. نعم .. أفهم ما تعنى !

وحنت عليه فجأة وراحت تقبل وجهه وتغطيه بلثماتها .. وتمسح خدها من تحت قبعتها بلحيته الخشنة . ونسيت تمام النسيان أنها قد ارتدت كامل ثيابها وهى توشك بهذا المسلك ان تكسر استواءها .. واخذت تنتحب وتغمغم بكلمات غامضة وسط عبراتها وتناشده قائلة :

ـ لا تقل شيئا كهذا .. والا لما وجدت فى نفسى قوة على تركك، فابقى هنا .. اجتهد أن تتحلى القوة والشجاعة . قل لى اننا سنتقابل مرارا أخرى .. أليس صحيحا أنك بحاجة الى ، واننا يوما

ما سنجد الوسيلة التى تتيح لنا أن نعيش معا ؟

فأجابها لوران ويداه ترتجفان فوق معطفها :

ـ عودى اذن .. عودى اذن غدا .. قولى أنك عائدة ..

ولكنى لا أستطيع أن أعود .. قلت لك من قبل أننى لم أجد [illegible] فى ذلك عذرا ولا شبه عذر .. كلا ! لست خائفة من الفضيحة . [illegible] كنت تريدنى أن آتى حقا سأقول لكاميلوس عندما أصل الى [illegible] أنك عشيقى وانى عائدة اليك لانام هنا .. ولكن خوفى عليك [illegible] ! فأنا لا أريد أن أدخل الاضطراب على حياتك ، بل أريد أن أتيح لك حياة سعيدة

وعندئذ تنبهت فى الشاب فطرته الحذرة ، فقال :

ـ معك حق .. فما ينبغى لنا ان نسلك سلوك الاطفال . وان كان لابد لزوجك أن يمحى عن طريقنا .. ولو حدث أنه مات ..

وتوقف عن الكلام .. فكررت تيريزا عبارته ببطء :

ـ ان حدث أن زوجى مات .. ؟!

ـ عندئذ نستطيع أن نتزوج .. فلن يكون أمامنا ما نخشاه . ويتسنى لنا أن نتذوق حلاوة حبنا كاملة .. ويالها عندئذ من حياة عذبة طيبة !

وانتصبت الشابة فى جلستها ، وشحب خداها ، ونظرت الى عشيقها بوجوم ، ثم اختلجت شفتاها وقالت أخيرا :

ـ يحدث أحيانا لبعض الناس أن يموتوا .. ولكن الخطر يبقى معلقا فوق رءوس من يعيشون بعدهم !

وصمت لوران فلم يجب .. فاستطردت تيريزا تقول :

ـ فأنتذا ترى .. ان كل وسيلة من الوسائل المعروفة غير مضمونة العواقب ..

فقال بهدوء شديد :

ـ لقد أسات فهمى .. فأنا لست مغفلا ، بل أريد أن أحبك واستمتع بهذا الحب فى أمان واطمئنان .. وما كنت أفكر فيه ، هو أن الحوادث تقع للناس كل يوم ، كأن ترل أقدامهم ، أو تقع على رءوسهم قطعة حجارة من سور سطح بناء .. أشياء من قبيل القضاء والقدر . وفى هذه الحالة لا يقع الذنب على أحد !

وكان صوته غريبا ·· وابتسم واستطرد بصوت ناعم مهدهد :

ـ لا تقلقى ·· أمامنا متسع من الفرص كى ننعم بحبنا ونعيش سعداء .. فان لم نتقابل ولو بضعة أشهر ، لاتنسيني.. وتذكرى انى أعمل لتحقيق سعادتنا ··

وكانت تيريزا قد فتحت الباب لتنصرف .. فضمها بين ذراعيه قائلا :

ـ هل أنت لى حقيقة ؟ أتقسمين على انك ستمنحيننى دائما نفسك ·· باجمعها ، فى أى وقت وبلا تردد ·· كلما اردت ذلك ؟

فصرخت المرأة قائلة :

ـ نعم ! أنا لك .. انا ملك يمينك .. افعل بى ماتريد

وبقيا هناك برهة سادها صمت متوتر ·· وفجأة انتزعت تيريزا نفسها منه وانطلقت تهبط السلم من غير أن تنظر خلفها · وظل لوران فى مكانه كالمشدوه يصغى لوقع خطواتها المبتعدة ··

ولما انقطع آخر صدى لخطواتها عاد الى فراشه ، وكانت أغطيته لم تزل حارة وهواء الحجرة الصغيرة يكاد يخنقه بما حشدته فيه تيريزا من حرارة عواطفها الساخنة .. فكان رئتيه تتنفسان بضعة من تلك المرأة الشابة بأريجها الذى تختلط فيه عطور البنفسج الحادة برائحة أردانها المسكرة لحواسه.. فيخيل اليه انها حاضرة بين يديه، حتى اذا جمع يديه لم تحتضنا الا على شبح غير محسوس ورؤى غير ملموسة ، تفلت من ضمته الطائشة لتراقص وتحوم من حوله ، وتفور الدماء متأججة بلواعج الحرمان فى عروقه · ولم يمد يده ليغلق النافذة من فوقه ، وظل مستلقيا على ظهره بين الوسائد والحشايا ، مسترَوحا ما يهبط اليه من الانسام ، متفكرا وكأنه مطرق الى أعلى ، يحملق فى السماء الزرقاء الداكنة التى تبدو رقعتها من كوة سقف الحجرة

والى الصباح ظلت فكرة واحدة تجول برأسه ·· وقبل قدوم تيريزا لزيارته فى هذا الحشد الطاغى من العسة ، لم يكن فكر بوضوح فى اغتيال كاميلوس · وانما كان حديثه عن موته نتيجة انسياق مع الاحداث، مدفوعا بتلك الفكرة المزعجة : فكرة عدم احتماله تشيقه مرة أخرى · وهكذا برزت من بين طوايا اللاشعور ناحية جديدة من

طبيعته الخفية . وتحت سلطان الشهوة كشف له القتل عن وجهه حسنا فاجرا متحديا ··

والآن ، وقد صار وحيدا فى هدأة من الليل ، هاهو ذا يفكر بأناة وامعان فى تدبير ذلك القتل · واذا الفكرة التى اطلت برأسها وقد استخرجها الغرام اليائس من مكامنها ما بين ضمتين ولثمتين ، يهددهما الحرمان الابدى، هاهى ذى تنبسط امام ناظره هيكلا كاملا يطاليه بالتفاصيل التى تجعل منه كائنا كاملا · فراح لوران يتنقل بذهنه بين أنواع من المكائد والفخاخ · ويوازن بين الاحتمالات والظروف ، ولا يريد أن يترك ثغرة لسوء الطالع ·· ويضع نصب عينيه طول الوقت ما سوف يجنيه بهذا القتل من مغانم ··

ان مصالحه كلها تغريه بذلك الاغتيال ، فوالده لا يبدو عليه انه ينوى الموت فى أمد قريب · ومعنى هذا أنه يجب ان يبقى موظفا كادحا بليد العيش عشر سنوات أخرى على الاقل محروما من الطعام الدسم والعيش الرغد ونعومة الحياة مع امرأة تخصه بحنانها ودفء عواطفها ··

وكان التفكير فى ذلك يثير غيظه ويدفعه الى وضع حد لهذا الشقاء بأى ثمن ·· وموت كاميلوس كفيل بذلك كله ؛ لانه سيتزوج تيريزا ويرث ثروة مدام راكان فيتقاعد ويقضى أيامه مسترخيا فى الشمس. وكانت تلك الحياة التى تقضى فى الكسل هى المثل الاعلى فى نظره · فهو لا يريد من الدنيا الا ان يأكل وينام ويحتسى النبيذ ولا يقوم بأى عمل ، وينتظر بصبر وبلا لهفة وفاة أبيه · ويملؤه هذا الحلم بالسعادة .. ثم يتذكر ان كاميلوس وحده هو الذى يقف حائلا دون هذا الفردوس ، فيضم قبضتيه كأنه يريد أن يصرعه ··

وهو يريد تيريزا ·· يريدها بأجمعها لنفسه ·· يريدها رهن اشارته على الدوام · وان لم يتخلص من الزوج ، فلن تصل يده الى الزوجة ·· وهى نفسها قالت له ذلك ·· قالت إنها لن تستطيع العودة اليه · وهو شخصيا كان يرحب بالهروب معها الى اى مكان ··ولكنهما فى هذه الحالة سيتضوران جوعا معا · وأهون من هذا عليه ان يقتل زوجها فلا تحدث فضيحة · فكل ما هناك انه أزاح رجلا من طريقه وحل فى موضعه ··

وبدا له هذا المنطق الريفي العليظ ممتازا باهرا وطبيعيا .. ورغم ابثاره للحذر ، مال بكل نفسه الى تنفيذ هذا المشروع ..

وجعّل يتقلب على الفراش وهو يتفصد عرقا .. وينام أحيانا على بطنه ويدفن وجهه المبتل فى الوسادة التى كانت منذ ساعات تنام فوقها جدائل شعر تيريزا فتشرب نسيج كتانها من عطرها . ويزيد ذلك من لهائه، ويلح على نفسه فى العثور على وسيلة يقتل بها كاميلوس من غير خطر .. وكان الوفاة جاءت بالقضاء والقدر ، وبعد ان يعييه التفكير والتدبير يتقلب على ظهره ويفتح عينيه ، ويحملق فى هوة السماء المقلوبة من خلال كوة السقف ، وكانه ينقب بين وميض النجوم عن طريقة مأمونة للاغتيال .. ولكن ماهى طريقة مأمونة عثر عليها ..

لقد قال لعشيقته انه ليس طفلا غرا .. فلن يستخدم الخناجر والسموم . وما يرمى اليه هو الاغتيال بغير مخاطرة ، وبغير صراخ وفزع ، يريد نوعا من الاختفاء السحرى الذى لا سبيل اليه ..

ورويدا رويدا غلبه النوم على امره .. واستطاع هواء الفجر البارد أن يطرد البقية الباقية من طيف تيريزا العطرى من الحجرة . ثم استغرقه الكرى فنام نوما عميقا .. وكان آخر ما خطر بذهنه أنه سينتظر فرصة مواتية . وهكذا هدهدته خواطره على نغمة واحدة متواترة :

ـ سأقتله ! سأقتله ! سأقتله ! ..

أما تيريزا فوصلت الى البيت فى الساعة الحادية عشرة ودماؤها تكاد تنفجر ، ولا تدرى كيف ابصرت الطريق. ووجدت مدام راكان وكاميلوس قلقين عليها .. وباقتضاب ونفاد صبر أخبرتهما أن رحلتها كانت عقيمة . لانها لم تجد العميلة المدينة ، وانتظرت العربة الحافلة ساعة عند عودتها. وآوت الى فراشها بين اغطية باردة رطبة وظلت معظم الليل أرقة وغطيط كاميلوس بجانبها لا ينقطع . وكم من مرة قاومت نفسها حتى لا تحطم سحنته بقبضة يدها الناقمة ..

الفصل العاشر

حديث

ومرت بعد ذلك ثلاثة اسابيع على وجه التقريب ، كان لوران فى اثنائها يقضى كل امسية من الامسيات متململا فى المتجر ، يبدو عليه الاعياء ، وكأنه يعانى من داء مخامر ، فحول عينيه حلقات حمراء ملتهبة ، وشفتاه يعتريهما شحوب اضفى عليهما حدة لم تكن معهودة فيهما من قبل .. بيد أنه ظل محتفظا برزانته وبطء حركاته ، ينظر الى كاميلوس بثبات ، ويواجه عينيه بلا اضطراب ، ويظهر له نفس ما كان يظهره له من الصداقة والمودة ..

وكانت مدام راكان تمعن أكثر فى تدليل صديق الاسرة ، لما آنسته لديه من توعك يوحى ببوادر حمى خفيفة ...

واما تيريزا فاستردت فوق وجهها ذلك القناع الواجم الشارد ، فهى اقل من ذى قبل حركة ، واشد غموضا ، واهدأ اسارير .. فكأنما لوران الحاضر فى المتجر لا وجود له بالنسبة اليها ، فهى لا تكاد تعيره التفاتا ، ولا تتحدث اليه الا نادرا ، وتعامله بعدم مبالاة . حتى ان الطيبة العجوز « مدام راكان » تأذى حنانها بهذه القسوة من بنت اخيها نحو الشاب الغريب الدار الوحيد ، فكانت تهون عليه الامر قائلة له :

ـ لا تقم وزنا لبرود بنت اخى نحوك ، بل سلنى انا عنها ، فأنا التى اعرف حقيقة طبعها .. ان وجهها يبدو فاترا ، بل باردا، ولكن قلبها دافىء عامر بكل صنوف الحنان والرقة والعطف !

ولم يقع لقاء بين العاشقين .. فمنذ زارته فى الحجرة التى يسكنها فى شارع القديس فيكتور لم تتح لهما خلوة . وفى كل مساء، حين يجلس كل منهما فى مواجهة الآخر ، يبدوان كالغريبين . ومن

تحت مظهر سحنتيهما الهادئ تيارات واعاصير وبراكين من العواطف المتاججة يوشك ان ترمى بالشرر ، بل بالحمم ..

وكانت تيريزا تشعر احيانا بلحظات من الغضب والتمرد تعتلج فى صدرها ، وتكاد تأخذ عليها انفاسها اخذا .. وفى احيان اخرى تشعر بالخوف والجبن . اما لوران فكان فى نفسه رصيد ضخم يمده بالعنف والقسوة والوحشـــية ، ولكنه كان يمر بلحظات من الحيرة والتردد الموجع ..

انهما لم يكونا ليجسرا على النظر فى اعماق كيانهما .. فى اعماق تلك الحمى المضطرمة التى تمـلأ عقليهما بالابخـرة المتكاثفة ذات المذاق اللاذع والرائحة الخانقة ..

وعندما كانت تسنح لهما الفرصة الخاطفة ، كان ينفردا وراء مصراع باب طرفة عين ، كانت يداهما تتشابكان فى جنون مشبوب يكاد يحطم تحت وطأته الطاغية عظام اصابعهما وهما لايدريان !.. ففى عناق اليدين ذلك العنـاق الصامت الجارف ، كان لدى كل يد ثأرا تطلبه عند اليد الاخرى ، ايجازا مقتضبا لعناق جسديهما المتاهين من عذاب الحرمان !.. ولو تركا العنان لنفسيهما ، او طال التشابك لحظة اخرى ، لحطم كل منهما عظم الآخر ومزق لحمه !. فليس امامهما الآن للتنفيس عن رغائبهما سوى هـذا التشـابك الخاطف ، ولا يجرؤ احدهما ان يطلب الى الآخر اكثر من ذلك فى هذا الاوان .. فهما ينتظران ويتربصان ..

وذات مساء من امسـيات الخميس ، جلس ضيوف آل راكان وقد اكتمل عقدهم ، يتجاذبون اطراف الحديث كالمعتـاد قبل ان تبدأ لعبة الدومينو . ومن اهم الموضوعات التى يطرقونها فى احاديثهم ذكريات ميشو عن الحوادث الجنائية البارزة فى مدة خدمته الطويلة ، والتى عرفها بحكم عمله معرفة صميمة تحيط بالاسرار والخبايا !

وكان الجميع يصغون لما يتدفق من فم ميشـو باهتمام يقارب الانبهار ، لان حياة الخاملين من الناس تبحث دائما عن منفذ تتحرر به من خمولها ، فتتطلع الى الشاذ المضطرب المائج من سير الجريمة او الخيانة !.. فما كان اشبه وجوههم عندئذ بوجوه اطفال يصغون لاحاديث الجان او القرصان ، فى فزع مستطاب !

وفى ذلك المسـاء روى لهم « ميشو » تفاصيل جريمة قتل فظيعة ، ارتعدت لها فرائص سامعيه .. وفى ختام السرد هز رأسه قائلا :

ــ وما كل شيء يحدث فى عالم الجريمة يتكشف لذهن المحقق .. فكم من جريمة بقيت خافية لم يمط عنها اللثام ! وكم من مجـرم يمشى بين الناس طليقا لا تدركه يد العقاب فى هذه الدنيا ..!

فصاح « جريفيه » متعجبا :

ــ ماذا تقول ؟ اتظن حقا ان فى شوارعنا الآمنة مجرمين ، ايديهم ملطخة بالدماء ، ولم يتم القبض عليهم ؟..

فابتسم اوليفييه بازدراء ، وقال بصوته الاجش :

ــ بل ولن يقبض عليهم اكبر الظن .. فاذا كانوا طليقى السراح الآن يا سـيدى العزيز ، فذلك لان احـدا لا يعلم انهم ارتكبـوا جرما ...

ويبدو ان هذا المنطق لم يقنع جريفيه .. فاسرع كاميلوس الى مناصرته :

ــ انا شخصيا على راى مسيو جريفيه .. اولى الاعتقاد فى كفاية رجال الشرطة ، وان المجرمين الخطرين لا مكان لهم بين ظهرانينا ..

واحس اوليفييه بشيء من العمز الشخصى لرجال الشرطة فقال :

ــ لا شك طبعا فى ان رجال شرطتنا اكفاء .. واكفـاء جـدا . ولكننا بشر على كل حال ، وليس فى وسعنا ان نحقق المستحيل .. وهناك عباقرة فى الاجرام كان الشيطان نفسـه قد تولى تدريبهم والهامهم .. لذا فهم ينجون بما اقترفوا ، ولا تعلق باذيالهم ريبة .. ولا تتجه اليهم شبهة . اليس كذلك يا ابى ؟

فقال ميشـو العجوز على الفور لابنه :

ــ طبعا طبعا .. فمثلا عندما كنت فى « فيرنون » ـــ ولا شك انك تذكرين تلك الحادثة يا مدام راكان ـــ عثروا على جثة سـائق عربة نقل فى خندق ، وقد قطعت اوصاله اربا .. ولم تفلح محاولاتنا اليائسة فى الوقوف على أثر المجرم الاثيم . ولعل هذا القاتل لم يزل على قيد الحياة ، بل ولعله يعيش فى مكان قريب من هنا . وليس من المستحيل ان المسيو جريفيه سـيلقاه فى طريقه الليـلة الى داره !

فاكفهر وجه جريفيه ، حتى حاكى لون الثلج من شدة الخوف، ولم يجسر على الالتفات برأسه ، خشية ان يكون ذلك القاتل المزعوم واقفا وراء ظهره فتقع عليه عيناه ! وهتف مغمغما :

— كلا ! كلا !.. انى ارفض ان اصدق هذا الكلام ... وانا فى الوقت نفسه اعرف قصة اخرى .. قصة فتاة خادم زجت فى السجن لاقدامها على سرقة آنية فضية منقوشة من بيت مخدوميها، وبعد شهرين اتفق ان باع مخدومُها بعض اشجار حديقتهما لتاجر خشب . وعند قطع احدى الدوحات الباسقة ، وجدت الآنية الفضية الضائعة فى عش حداة ! فالحداة كانت هى السارقة الحقيقية .. فاطلق سراح الفتاة البريئة .. مهانتذا ترى أن الله يمهل ولا يهمل ، وأن المجرم لا بد ان يلقى قصاصه ..

وضحك اوليفيه ساخرا وقال :

— طبعا طبعا .. فلا بد ان الحداة سيقت الى السجن !

فقاطعه كاميلوس غاضبا لرئيسه ، وما اصابه من زراية :

— ليس هذا ما اراد ان يذهب اليه المسيو جريفيه طبعا .. هيا يا أمى .. احضرى الدومينو ...

وذهبت السيدة لتحضر أدوات اللعب ، فقال كاميلوس لميشو :

— اذن فهناك فى رايك يا سيدى قتلة طليقو السراح يسيرون بين ظهرانينا فى الشوارع ؟ اتعتقد حقا ان كفاية الشرطة محدودة ؟

فقال مفتش الشرطة المتقاعد :

— طبعا .. للاسف الشديد ..

فصاح جريفيه :

— هذا مثبط للعزائم .. وفيه افساد للروح المعنوية ..

وفى غضون هذه المناقشة ، ظلت تيريزا ولوران لائذين بالصمت ولم تداعب الابتسامة شفتيهما لسذاجة جريفيه وبلادة ذهنه .. فكل من العاشقين كان معتمدا بمرفقيه على المائدة ، وفى وجهه شىء من الشحوب .. والنظرة ثابتة فيها تحجر .. والاذنان مرهفتان لالتقاط كل حرف من حروف ذلك الموضوع المثير لكل ماقى راسيهما من افكار حمية ، وما فى سريرتيهما من انفعالات نارية ..

ولكن الحذر لم يستطع ان يحول دون التقاء عينيهما لحظة واحدة ، فاذا بانسانيهما وكأنهما قطعتان من الفحم الداكن ، اللامع، المتقد .. ثم طفرت قطرات من العرق البارد الى جبين تيريزا وجذور شعرها . اما لوران ، فانتابت اوصاله رعدة جعلت كل خلية فى جلده تنكمش ..

الفصل الحادي عشر

فى بعض الاحيان ، عندما يكون الجو جميلا فى ايام الاحاد ، يحمل « كاميلوس » زوجته تيريزا على الخروج معه للتنزه فى حدائق الشانزيليزيه . وكانت المراة الشابة حرية أن تفضل على ذلك الخروج ، بقاءها فى المتجر الرطب ، لانها سرعان ما تشعر بالسأم والضيق والتعب وهى متعلقة بذراع ذلك الرجل الخرع ، وهو يجرها حينا ، ويقف بها حينا آخر على افاريز الشوارع ، امام واجهات المتاجر الكبرى .. وهو يتعجب فى سذاجة بلهاء من كل ما تقع عليه عيناه .. وبعد هذه التعليقات السخيفة يقف ساكتا مبهورا فترة اخرى ، وهى تكاد تموت من الضجر .. ولكن كاميلوس كان يلح عليها فى ذلك الخروج معه ، لانه فخور بزوجته ، ويحب أن يعرض حيازته لها على أنظار الناس .. فاذا حدث انه التقى مصادفة باحد زملائه ، او على الخصوص باحد رؤسائه فى العمل ، كان يمتلىء زهوا وهو يتبادل معه التحية برفع القبعة ، وهو فى صحبة « المدام .. » . ثم انه فضلا عن هذا يحب المشى للمشى ، ولا يكاد يفتح فمه بحديث مسل عندما يكون داخل ثياب الاحد ، وكان جسده منشى مثل قميصه الابيض ذى الياقة العالية !

وفى الايام التى يخرجان فيها للتنزه ، كانت « مدام راكان » تصحب « ولديها العزيزين » الى نهاية ممر القنطرة الجديدة ... ثم تقبلهما كانهما ذاهبان فى مغامرة او سفر بعيد ، وتزودهما بكمية وافرة من النصح والارشاد ، وتوصيهما أن يلتفتا للطريق ، ويسيرا على الطوار ، ويحذرا المركبات والناس والهواء !..

ــ احذرا على الخصوص من الحوادث .. فما أكثر المركبات فى باريس ! وعدانى الا تتوغلا فى الزحام ..

وتتركهما اخيرا ، وهى تمطرهما بالدعوات ، وتتعقب آثارهما فى الشارع الكبير الى مسافة بعيدة ، وتعود ادراجها ، فساقاها قد ثقلتا ، ولم تعد لديها القدرة على السير الطويل ، والا لذهبت معهما ولما هان عليها أن تفارقهما ..

وفى مناسبات اخرى ، ليست بالكثيرة ، كان الزوجان يذهبان يوم الاحد للتنزه خارج العاصمة ، فى ضاحية من ضواحى الريف على مشارف باريس .. ويأكلان السمك المقلى اللذيذ فى مطعم من تلك المطاعم الصغيرة المتناثرة على ضفتى نهر السين ..

وهذه الرحلات النادرة كانت تعتبر احداثا بالغة الاهمية فى حياة الاسرة ، تستعد لها وتتحدث عن مشروعاتها قبل موعدها بشهر كامل ...

وكانت تيريزا اقرب الى الرضا والاقبال على هذه الرحلات الريفية ، حيث يباح لها أن تنعم بالهواء الطلق الى الساعة العاشرة او الحادية عشرة ليلا. وكانت المناظر التى يجتمع فيها الماء بالروابى الخضر والحقول المترامية تذكرها بايام طفولتها الحوالى فى «فيرنون» فيعاودها الحنين القديم الى السين وحرير أمواجه ، وتجلس على الحصى الذى غسله الماء ، وتمد اصابعها فتغمرها فى التيار ، وتترك جسدها للاشعة اللاذعة تحترقه فى تلذذ غامض ..

واما كاميلوس ، فكان يبسط منديله النظيف بعناية فوق الحصى ، ثم يجلس بجوارها فى حرص شديد ..

وتعود الزوجان فى المدة الاخيرة أن يأتيا معهما بصديق العائلة .. لوران ، لانه كان يسليهما فى الطريق ، ويسرى عنهما بلباقته فى الحديث ، ونوادره ونكاته وضحكه وحيويته الريفية المتصرمة..

وذات يوم من ايام الاحد ، اتجه كاميلوس وتيريزا ولوران الى ضاحية « سان اوان » على ارباض باريس ، وكان خروجهم من ممر القنطرة الجديدة فى الساعة الحادية عشرة ضحى ، بعد تناول طعام الافطار المتاخر . وكان مشروع تلك الرحلة موضع بحث منذ زمن طويل .. لانها رحلة ختام ذلك الموسم ، فالخريف كان على الابواب ، والبرودة تشوب رياح الليل وندى السحر بشكل واضح ..

وفى ذلك النهار كانت السماء لم تزل محتفظة بزرقتها الصافية

الاديم ، والحرارة شديدة في الشمس ، اما الظل فلا يخلو من دفء .. فقرر الثلاثة ان يستعيدوا من هذه البقية الباقية من شمس الصيف .

واستقل الثلاثة مركبة عند راس الممر ، وتركوا « مدام راكان » العجوز غير مرتاحة لهذا الرحيل كعادتها . واخترقت بهم العربة باريس وغادروها عند التحصينات الخارجية ، ثم مشوا على اقدامهم صوب الضاحية ، على الطريق العام ، فوصلوا « سان اوان » في وقت الظهر . وكانت تيريزا تسير في المقدمة ، آخذة بذراع كاميلوس ، ولوران يتبعهما عن كثب ، والشمس الحارة تلذع قفاه المريض ، ولكنه يبدو مشغولا عن فعل الشمس بقفاه ، فهو يصفر ، ويركل الحصى والحصباء بحذائه ، ويرمق في الحين بعد الحين قامة عشيقته من الخلف ، وهي تسير بمشيتها المتأرجحة ، ولومض عيناه بشرر نار متاججة توشك أن تندلع من تنور !

وما أن وصل الثلاثة الى الشاطيء الذي تقع عليه «سان اوان» حتى بادروا اولا بالبحث عن اجمة ملتفة من الاشجار الباسقة ذات الظل الظليل ، من تحتها خميلة من عشب ناضر ، لراوحها الانسام وتماديها . وحدا بهم ذلك البحث الى عبور النهر ، فنزلوا جزيرة بها غابة صغيرة ، تكسو ارضها الاوراق الساقطة ببساط جميل وثير .. وهناك قرروا ان يستقروا ..

وتخير كاميلوس بقعة جافة جلس فوقها بحرص ، وهو يرفع فضل سرواله وفضل سترته . اما تيريزا فارتمت بلا حساب فوق الاوراق الجافة ، وبسطت ذراعيها كانها تريد ان تحتضن جذوع الاشجار الحانية عليها ، وصفحة السماء المطلة من فوقها .. واما لوران فانبطح على بطنه وراح ينظر خلسة الى قوام تيريزا وساقيها اللتين تكشفت عنهما الثياب

وقضوا في تلك القيلولة الجميلة المسترخية زهاء ثلاث ساعات ، في انتظار دخول بعض الوهن على اشعة الشمس حين تجنح للغروب ، كي يسيروا في الحقول قليلا ، قبل تناول العشاء ..

وكان « كاميلوس » في تلك الاثناء يتحدث عن شئون العمل في المكتب ، ويروي قصصا سخيفة للغاية ، ثم أدركه التعب فرقد على

ظهره وراح في النوم ، ووضع قبعته على وجهه ليلاقي الضوء والذباب ، واغمضت تيريزا عينيها وتصنعت الاستغراق في النوم نوما طويلا .. وعندئذ زحف لوران على بطنه صوب الموضع الذي استلقت فيه المرأة ، والصق فمه بلحم قدمها من فوق الحذاء ، ثم كاد يحرق عقبيها بحرارة شفتيه . وكاد يمزق الجورب الحريري الابيض وجلد الحذاء باسنانه الناصعة القوية كاسنان الحيوان المفترس .. وقد اثارت خياشيمه الرائحة المنعشة من الارض الخصبة ، والاريج الفواح من العشب النامي ، والعطر الانثوي الذي يشيع من جسد المرأة التي طالما اسكرت جوارحه ، فعلت الدماء في عروقه ، وشدت اعصابه شدا كاد يمزقها . وكان السير الطويل في الشمس قد اذكى الجذوات الكامنة في جسده الشهواني . وهاهو ذا الآن في هذه الخلوة المتوارية عن الانظار ، في ظل وارف وسكينة مأنوسة ، ومعشوقته في متناول يده ، بعد حرمان من وصالها المشتهى دام شهرا واكثر من شهر ، ولا يستطيع ان يضمها بين احضانه المحمومة ضمة تشفي الاوار وتنقع الصدى ! لانه يخشى ان يستيقظ زوجها فجأة من نعاسه فيراه ويحبط ما دبر من مسعاه ، ويحطم صدره ويأخذ عليه منافذ السبل الى غايته المرجوة ..

ان هذا الرجل عقبة كأداء في طريق آماله .. وها هو ذا كالكلب الذليل — وهو منبطح على بطنه وفمه مدفون في اثواب تيريزا كأنه الكلب تماما — يقنع بلثم حذائها وجوربها في صمت ، وهي جامدة في موضعها ، متصلبة في ضجعتها ، حتى لقد خالها لوران نائمة نوما ..

وثقلت الوطأة على العشيق المحروم ، فنهض قائما ، ثم وقف واسند ظهره متململا الى جذع شجرة قريبة ، وعندئذ نظر الى عيني تيريزا مفتوحتان ، تحملق بهما في صفحة السماء التي تتراءى لها من بين غصون الشجر .. وهما تلمعان لمعانا شديدا يدل على فداحة ما تعانيه .. ووجهها مكفهر غاية الاكفهرار ، متصلب الاسارير ..

لقد كانت تيريزا تفكر ، وكان عينيها الشاخصتين هوتان لايرى الناظر في اعماقهما شيئا سوى الظلمة الحالكة .. ولم تحرك

اسنانيهما صوب لوران الذى وقف من خلف رأسها ينظر اليها ، وقد ازعجه انها كانت جامدة كالحجر الصوان تحت لمساته المحرقة ، ثم اسلمه ذلك الازعاج الى طوفان من الرغبة المجنونة كاد يجرفه فينقض على هذا الوجه الشاحب الجامد الاسارير ويقفل هاتين العينين بفيضان من قبلاته .. ولكنه تماسك وقد تذكر زوجها النائم بجوارها ، يكاد يلتصق ثوبه بثوبها ، وغطيطه يرفع صدره الضيق الضعيف ويهبط به فى انتظام ، وقد القى رأسه الى الوراء كاشفا عن عنق هزيل .. فبدا منظره فى جملته باعثا على الاشمئزاز والزراية

وفجأة تقلص ساق لوران ، ورفع قدمه عن الارض ، وهم أن يحطم وجه كاميلوس بضربة واحدة ، وحبست تيريزا صرخة كادت تنطلق من حلقها ، وشحب وجهها واغمضت عينيها ، واشاحت براسها ، كانها تتحاشى أن يصيبها رشاش من دم زوجها المتناثر !

وظل لوران بضع لحظات ، وقدمه فوق وجه كاميلوس النائم ثم رد قدمه ببطء شديد الى موضعها من الارض ، وابتعد عن المكان بضع خطوات . وقد أقنع نفسه أن هذه الوسيلة من الاغتيال لايمكن ان يقدم عليها سوى احمق.. لان هذه الجمجمة المهشمة جديرة ان ترسل فى اثره كل قوى الشرطة . وهو لايريد التخلص من كاميلوس لمجرد القضاء على حياته ، بل ليتسنى له الزواج من تيريزا . وفى مراده أن يعيش فى وضح النهار بعد ارتكاب جريمته بلا رهبة ، على غرار قاتل قائد عربة النقل الذى روى قصته العجوز « ميشو »

ومشى الى ضفة النهر ، ووقف يرقب جريان الماء وكانه منحول.. وفجأة عاد الى الغابة ، وقد استقر رأيه على خطة معينة ، واختار طريقة سهلة للاغتيال لا تعرضه لاى خطر ..

وبهدوء تام ايقظ النائم : داعب انفه بعود جاف ، فعطس كاميلوس، ونهض وهو يضحك ملء شدقيه من هذا المزاح الرقيق!.. وكان يحب لوران اشد الحب لبراعته فى المزاح . ثم هز زوجته وقد ظنها نائمة لانها مغمضة العينين، فنهضت ونفضت القش والورق الجاف عن اذيالها ، وسار الثلاثة الهوينا بين اشجار الغابة ،يذودون الغصون عن وجوههم بايديهم ...

وغادروا الجزيرة الى الضفة الاخرى ، وتمشوا بين جماعات من المتنزهين الصاخبين جاءوا مثلهم من باريس لقضاء سحابة النهار، وقد ارتدوا احسن ثيابهم . وكانت بينهم فتيات من نساء الحى اللاتينى كن يغنين اغنيات شائعة مرحة ، وهن يتواثبن .والنوتيون يجدفون فى الزوارق الخفاف وينشدون اغنيات الملاحين ذات الطابع المرح.. وكانت الشمس قد مالت عن كبد السماء وجنحت للغروب ، وبدأ الهواء يحمل فى اذياله شيئا من البرودة والرطوبة

وكان كاميلوس يسير غير متعلق بذراع تيريزا ، لانشغاله بالحديث مع لوران .. لوران يروى له النكات وهو يضحك حتى يغرب ، أو يقفز لوران فوق الحواجز والاسوار فى حركات بهلوانية تنم عن قوته البدنية المفرطة ، فيصفق كاميلوس اعجابا ..

وتيريزا تسير مطأطئة الرأس . وربما انحنت فقطفت عودا من اعواد العشب الاخضر فهصرتها بين أناملها ، وهى تختلس النظر الى زوجها وعشيقها .. واخيرا صاح بها كاميلوس :

ــ ويحك ! ألست جائعة ؟ !

ـ بل ! ..

ــ اذن هيا بنا ندبر امر الطعام ..

ولم تكن تيريزا فى الحقيقة جائعة .. بل قلقة متوجسة مما يدور فى رأس لوران ، وهو يتظاهر بخلو البال على هذا النحو

واتجه الثلاثة الى الشاطىء لينشدوا مطعما يتناولون فيه عشاءهم المرموق من السمك المقلى الساخن ..

الفصل الثاني عشر

الخطـة ..

وفى مطعم من تلك المطاعم الرخيصة التى تفوح منها روائح الشحم والنبيذ ، وجدوا مائدة على شرفة مصنوعة من الخشب العتيق مطلة على مياه النهر . وكان الجو مشحونا بصيحات الرواد وضحكاتهم المدوية ، وغنائهم ، وصليل الاطباق والاكواب . ولا يمنى فى حبس تلك الضجة فواصل رقيقة من الخشب العتيق تقسم الشرفة الى « خانات » صغيرة مثل بيوت الحمام .. بل كانت هذه الفواصل معوانا على تضخيم الاصوات بما تضيفه اليها من الصدى والرنين . وكان الخدم والسقاة يهزون السلالم الخشبية هزا ، وهم يصعدون ويهبطون حاملين المشروبات والصحاف الى الزبائن الصاخبين ...

وكان الهواء المتصاعد من النهر الى مستوى الشرفة الخشبية ، يجرف معه رائحة الدهن والشواء المتراكمة ، فيخفف من ثقل الانفاس ... ووقفت تيريزا واطلت من فوق السياج الخشبى على مجرى النهر ، حيث تغدو القوارب وتروح ، ورؤاط المتنزهين والنوتية فيها لا ينقطع ، وسواد معاطف الرجال يبايز بريق الوان اكسية الفتيات والنساء ، ويزيده وضوحا فى مراى العين ...

واتجه لوران الى موضع آخر من السياج ، عند راس السلم ، وصاح بالساقى فى الطابق الاسفل :

ــ ما المسالة يا ساقى ؟ الا تنوى ان تقدم لنا عشاء هذا المساء ؟

ثم سكت فجاة ، وتحول الى كاميلوس قائلا :

ــ قل لى ما رايك يا كاميلوس .. الا نذهب الآن فنركب زورقا نجدف فيه ساعة من الزمن قبل ان نجلس الى المائدة ؟.. هذه

المهلة ستتيح لهم فسحة من الوقت يشوون لنا فيها دجاجة صغيرة .. فسوف يضجرنا الانتظار الممل ساعة على الاقل ريثما يعدون الدجاجة ...

فقال كاميلوس بغير مبالاة :

ــ كما تشاء ... ولكن تيريزا فيما اعتقد جائعة ..

واسرعت المراة تقول بلهفة ، وقد شعرت بوطاة نظرات لوران فوقها :

ــ كلا .. كلا .. بل استطيع الانتظار ...

وهبط ثلاثتهم الدرج الخشبى ، وعند مرورهم بادارة المطعم فى « البار » حجزوا مائدة على النهر ، واوصوا بشى دجاجة وبسمك مقلى ساخن وسيد ، وقالوا انهم عائدون فى مدى ساعة من الزمن..

ولما كانت ادارة المطعم تؤجر ايضا قوارب للتجديف ، فقد طلب لوران من المدير ان يحل لهم قاربا ، واختار لوران زورقا ضيقا جدا وخفيفا للغاية ، حتى ان كاميلوس فزع وقال :

ــ لابد وايم الشيطان ان نجلس متلاصقين فى هذا الزورق ، والا انتهى بنا الامر الى حمام اجبارى ..!

والحقيقة ان « كاميلوس » كان يخاف الماء .. بل يمتلىء منه رعبا ، اذ انه حين كان صبيا فى « فيرنون » ، لم تسمح له ظروفه الصحية بالسباحة فى السين مثل اترابه من الصغار الذين كانوا يغوصون تحت سطح الماء ، ويعبرون النهر من ضفة الى ضفة ، ثم يعودون بغير عناء .. فكل ما يعرفه من السباحة فى ذلك الوقت هو « العوم » فى غرفه بين الاغطية الصوفية الثقيلة !..

اما لوران فشب سباحا ماهرا جسورا ، وله على التجديف قدرة لا تعرف الكلل .. وظل كاميلوس فى رجولته كالطفل الرضيع رهبة للماء ، وعجزا امام تياره .. ولذا اخذ يتحسس الزورق بيديه ، كان يريد ان يستوثق من متانة اخشابه وصلابة بنيانه...

فناداه لوران قحـ ، وهو يضحك ملء شدقيه :

ــ هيا يارجل .. اركب ! هل انت هكذا خائف على الدوام ؟ !

وبعد ان جس كاميلوس « السقالة » بقدمه اكثر من مرة ، مشى يتارجح فوقها الى الزورق ، وجلس على المقعد القائم وراء

الدفة ، ولما استقر واطمأن الى سلامة مجلسه ، راح يضحك اظهاراً لعدم خوفه !

وكانت تيريزا قد بقيت على البر ، متعكرة ساكنة الاسارير ، وهى واقفة بجوار عشيقها الذى أمسك فى يده بحبل المرساة .. وانحنى كأنه يعالج حله من المرسى ، وقال هامسا :

ــ افتحى عينيك جيدا ... سألقى به الى الماء ... افعلى ما أقوله لك ... واتركى لى كل شىء ...

واكفهر وجه المرأة اكفهرارا شديدا .. وبقيت فى موضعها وكأنها سمرت الى الارض تسميرا ، واتسعت حدقتاها من شدة الارتياع .. فهمس لها لوران بلهجة قاطعة :

ــ اركبى ! هيا اركبى !..

ولم تتحرك .. ففى أغوار نفسها كانت تدور معركة هائلة .. وراحت تشدد عزيمتها بأقصى ما تستطيع ، وتقسى قلبها ، لانها خشيت أن تنفجر باكية أو تخر على الارض مغشيا عليها ...

وقهقه كاميلوس حين رأى شحوبها وجمودها فى مكانها وصاح :

ــ ها ها ! انظر يا لوران الى تيريزا ... انها هى الخائفة لا انا ..! أتراها لا تنوى الركوب ؟..

وبسط رجليه وذراعيه وهو جالس فى الزورق ، اظهارا لعدم مبالاته وشجاعته ! فرشقته تيريزا بنظرة غريبة للغاية ... وكأنما كانت ضحكاته الساخرة هى العامل المرجح الذى دفعها اخيرا الى اصدار قرار اعدامه ، فقفزت الى الزورق فجأة بكل خفة ، وجلست فى المقدمة فى الجهة المقابلة لمقعد زوجها عند الدفة ، وتناول لوران المجدافين ، وغادر الزورق الشاطىء ، متجها فى بطء شديد نحو الجزر الصغيرة التى تعترض مجرى النهر الواسع ...

وكان الوقت أصيلا ، وقد كاد قرص الشمس يختفى وراء الافق ... وظلال الاشجار الكبيرة على الشاطئين تبدو سوداء قاتمة ، ومن بينهما يبدو الماء كأنه سبيكة من الفضة اللامعة تنعكس عليها أشعة الشمس ... وسرعان ما توسط الزورق مجرى النهر..

وفى وسط التيار ، كانت الضجة التى تعلو من المتنزهين على البرين لا تكاد تصل الى مسامعهم الا لغطا خفيفا جدا .. تختلط

منه بقايا الانغام والمزامير والاهازيج المرحة فى خفوت يثير الشجن..

اما الروائح الثقيلة : روائح الشواء والدهن والغبار الثائر من وقع الاقدام ، فقد تخلص منها الهواء وسط مجرى السين وصار منعشا نقيا أقرب الى البرودة ...

وترك لوران التجديف ، وأرخى للزورق الضيق العنان لينساب مع التيار المطلق فوق صفحة النهر ...

ومن أمامهم كانت مجموعة من الجزر الحمراء .. وأما الشاطئان فبدا بهما شريطان من الخضرة يمتدان ليلتقيا عند خط الافق ، وقد بدت صفحة السماء وصفحة الماء وكأنهما صيغتا من معدن واحد باهت اللون ... وما من منظر أبعث على الاسى فى النفس الشاعرة من منظر المساء وهو يهبط على ريف ساكن فى أيام الخريف ، ومع كل هبة من هبات النسيم تتساقط أوراق جافة كثيرة أحرقتها الشمس الحارة فى فترة النهار ... وأعواد النبات ترتجف اشفاقا من الرياح الباردة التى تدق الطبول لطلائع الشتاء ... وقد سمعت خطواته الثقيلة من بعد بعيد ، فكأن ظلال الليل المخيم أكفان سوداء تلف فى طواياها شيخوخة العام ..

ولبث الثلاثة صامتين أمام هذا المنظر الرهيب ... وراحت عيونهم تتبع آخر ذيول الاشعة وهى تفارق ذؤابات الاشجار ، والزورق يقترب بهم من الجزر وقد ازداد لونها حلكة ... وكان كاميلوس قد انبطح فى النهاية على بطنه ، ودلى رأسه من فوق حاجز الزورق ليطل على الماء ، وغمر كفيه فى الموج ، وصاح بصوت يجمع بين الخوف والتلذذ :

ــ ما أشد برودة الماء ... انى وربى لا أتمنى أن أغمر رأسى فى مثل هذا ...

ولم يجبه لوران بكلمة ... لانه كان فى اللحظات الاخيرة منصرفا الى فحص الشاطئين وتقدير المسافة التى يبعدها الزورق عن كل شاطىء منهما بعينيه فى قلق . وقد جعل يمر براحتيه الكبيرتين على فخذيه جيئة وذهابا ، ويعض شفتيه .. وأما تيريزا فقد ألقت برأسها الى الوراء قليلا ، وجمدت فى مكانها متخشبة ...

ودخل الزورق فرعا من فروع السين بين جزيرتين صغيرتين ،

ومن وراء احدى الجزيرتين سمعوا غناء نوتية في مركب من تلك المراكب التي تمخر نهر السين حاملة البضائع .. اما صفحة الماء من الامام والخلف ، فكانت خالية تماما ...

وعندئذ هب لوران واقفا ، وقبض على كاميلوس من خاصرته ، فانفجر كاميلوس ضاحكا وهو يحسبها دعابة من دعابات صديقه العزيز المهزار وقال :

ــ كفى .. كفى .. انك تدغدغني !.. كفى هذرا ومزاحا !. كفى والا اوقعتني في التيار يا لوران ...

وشدد لوران قبضته عليه ثم دفعه دفعة قوية ، فاستدار كاميلوس نحو صديقه وراى وجهه المتشنج .. ولم يستطع ان يفهم المغزى الحقيقي لتلك السحنة ، ولكنه امتلأ رعبا غامضا لا سند له من المنطق ، وهم ان يصرخ ، ولكن يدا غليظة كالحديد اطبقت على عنقه ، وبغريزة الحيوان الاعجم حين يدافع عن حياته ، نهض على ركبتيه ، وتشبث بجوانب الزورق ، وظل يكافح وهو على هذا الوضع بضع ثوان .. وصاح بصوت مخنوق لا يكاد يسمع :

ــ تيريزا ... تيريزا ..!

وكانت المراة ترقب ما يحدث ، وهي متشبثة بيديها كلتيهما بأحد مقاعد الزورق الذي راح يتراقص مترنحا فوق صفحة الماء ..

لم تستطع ان تقفل عينيها ، لان الرعب العصبي جعلها تحملق بهما وتتبع مسرح الصراع من اجلها وكأنها مسحورة ، وقد عقل الخوف لسانها ، وشل اوصالها ...

وصاح المسكين مرة اخرى وانفاسه تفح فحيحا :

ــ تيريزا ... تيريزا ..!

وعندئذ ... وقد سمعت هذه الاستغاثة الثانية ، انفجرت باكية ... وقد خانتها اعصابها ، والقت بها النوبة الهستيرية الى قاع الزورق ، وهناك بقيت مستلقية لا تبدي حراكا ، وهي في شبه اغماء ...

وكان لوران في هذا الوقت مستمرا في خنق كاميلوس ، وبيده الاخرى استطاع انتزاع قبضتيه من جانبي الزورق ، ورفعه في

الهواء كأنه طفل صغير ، وكان عنق لوران مكشوفا وهو يمد رأسه الى احد الجانبين ليبعد كاميلوس عن الزورق ، فانقض كاميلوس في جنون الغضب على احد جانبي عنق لوران وانشب اسنانه فيه ، فصرخ لوران صرخة مكتومة والقى ضحيته الى الماء ... وفي فمه قطعة من بشرة قاتله !

وسقط كاميلوس في الماء وهو يصرخ ... وغاص وطفا على وجه الماء مرتين ، اما لوران فرفع عشيقته الغائبة عن الرشد بين ذراعيه ، ثم دفع جانب الزورق بقدمه بقوة فانقلب في النهر ، وظل لوران رافعا تيريزا فوق سطح الماء ، وهو يصرخ بأعلى صوته طالبا النجدة !

وسمع البحارة الذين يغنون وراء الجزيرة اليمنى في زورقهم صوت الصراخ والاستغاثة ، فاسرعوا بزورقهم الى تلك البقعة بين الجزيرتين ، فوجدوا امامهم الزورق مقلوبا ، وخلصوا تيريزا اولا ووضعوها فوق مقعد لتفيق ، ثم انقذوا لوران ايضا ... فاخذ على الفور يولول ويلطم خديه ويندب حظ صديق العمر !..

ولم يكتف بهذا ، بل غافل منقذيه والقى بنفسه في النهر ، وراح يغوص ويطفو ، باحثا عن صديقه في مواضع يعلم جيدا انه غير موجود فيها ، ويدعو الملاحين للتنقيب عنه معه في تلك المواضع البعيدة عن نقطة سقوطه في الماء ...

وبعد محاولات يائسة ، عاد الى البر واخذ يلطم خديه ، ويجذب شعره ، والملاحون يحاولون تهدئته والتسرية عنه ، وهو لايريد ان يعزى ، ويصيح :

ــ انها غلطتي انا ... كان ينبغي ان امنع الفتى المسكين من الرقص والقفز على حافة الزورق بهذا الشكل الخطر ... ولكنه كان مجنونا من الفرح ... فانقلب الزورق وكدنا كلنا نهلك ، وصرخ وهو يسقط في الماء يناشدني أن انقذ زوجته لانها لا تعرف السباحة ... ولكنه هو ايضا لم يكن يعرفها !.. رباه !

وكما يحدث في امثال هذه المناسبات ، انبرى ملاحان اقسما انهما رايا الحادث راى العين ... وان الفتى الغريق كان يرقص في الزورق وكأنه على البر ...

ـ ما أتعس زوجته ! انها ستفيق على أسوأ نكبة يمكن ان تحل بامرأة ...

واقل زورق اللاحين لوران وتيريزا الى الضفة التى بها المطعم حيث المائدة المحجوزة ، وكان الطعام الذى اوصى بصنعه قد تم اعداده ووضع على المائدة فوق الشرفة ، وفى الوقت نفسه كان جميع من فى « سان أوان » فى ذلك اليوم قد سمعوا بالحادث الاليم ، فتجمع منهم فى مدى بضع دقائق حلق كثير امام المطعم ..

وكان صاحب المطعم وزوجته رقيقى القلب جدا ، فقدما للرجل والمرأة ثيابا من ملابسهما الخاصة ، ولما افاقت تيريزا من اعمائها انتابتها الهيستيريا ، وانفجرت باكية بكاء يفتت الاكباد ، فلم يكن هناك مناص من ايوائها الى فراش صاحبة المطعم الخاص ..

ولما هدأت المرأة قليلا ، تركها لوران فى رعاية صاحبى المطعم ، وأصر على الذهاب الى باريس ليبلغ النبأ المشئوم الى « مدام راكان » بأخف ما يستطيع من الاساليب ...

والحقيقة انه كان خائفا من حالة تيريزا العصبية ، وكان يؤثر أن يترك لها فرصة للتفكير ، ولحفظ دورها المطلوب منها اداؤه ...

أما الطعام الفاخر الذى أوصى به كاميلوس ، فكان من نصيب اللاحين الذين قاموا بالانقاذ المزعوم ...

الفصل الثالث عشر

استنجاد

وفى ركن مظلم من العربة التى اقلته الى باريس ، رتب لوران افكاره واحكم خطته ، وكان موقنا تقريبا من افلاته من العقاب ، ولذا كان الحبور يملأ جوانحه .. وكان حبورا جنونيا جارفا ، ولما وصل الى باب « كليشى » نزل من السيارة العامة ، واستقل عربة اجرة الى مسكن العجوز « ميشو » فى شارع السين قرب ممر القنطرة الجديدة ، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة مساء ...

ووجد مفتش الشرطة المتقاعد جالسا الى مائدة العشاء مع ابنه أوليفييه وزوجة ابنه سوزان ، والحق ان لوران قدم الى هناك ليلتمس لدى الشيخ الطيب سندا يحميه ، على فرض أن ريبة قامت برأس أحد من رجال الشرطة الذين سيتولون التحقيق ، ولكى يجنب نفسه محنة ابلاغ النبأ الفظيع الى « مدام راكان » شخصيا .. فتلك مهمة كان شديد الاشفاق على نفسه منها ، لانه كان يتوقع منها ان تنفجر باكية نادبة ، وفى الوقت عينه يخشى الا يتقن اداء دوره كما يجب ، فلا يذرف من الدموع القدر الواجب !

ولما رآه الشيخ ميشو داخلا عليه بيته ، وقد ارتدى ثيابا عجيبة الشكل ، أصغر من حجمه الحقيقى بمراحل ، ومن نسيج خشن غير معهود فى لوران وابناء طبقته من الموظفين والمتعلمين ، نظر اليه نظرة تعجب وتساؤل .. فسرد لوران على مسامعه قصة الحادث بصوت مضعضع جدا ، كأنه مبهور الانفاس من شدة التأثر والفجيعة ، واختتم روايته قائلا :

ـ وهأنذا قد جئت اليك يامسيو ميشو ، لانى لم ادر ماذا أصنع بهاتين المرأتين المنكودتى الحظ ... ولم أجسر على الذهاب لملاقاة

امه بمفردي .. فتعال معي .. اتوسل اليك ان تأتي !

وطوال الوقت ، ظل ميشو العجوز يرمقه بنظرات فاحصة ثابتة ازعجته جدا .. فالقاتل الجرىء قد رتب امره على أســاس ان مفاجأته لهذين الشرطيين المحترسين بروايته ، سيبعد عنه الشبهة ويكفل له النجاة بجلده .. ولكنه لم يتمالك نفسه من الارتجـاف عندما وجد نظراتهما منصبة عليه بهذا الشكل .. وخيل اليه توجسه انه يرى الارتياب حيث لا وجود في الحقيقة الا للعطف والدهشـة والرثاء ، ولـكن على طريقة رجال الشرطة الذين الفوا سـماع الخوارق من الحوادث والنـكبات بجمود مهني ..

اما سوزان ، فلم تكن لها صلابة زوجها وحميها .. فشحب لونها شحوبا شديدا ، حتى لقد اوشكت ان يغمى عليها ..

وعندما انتهى لوران تماما من القاء ما لديه ، وبات مؤكدا ان المسكين كاميلوس قضى نحبه بهذه الميتة الشنيعة ، انفجر ميشـو بسيل من التحسرات والتفجعات ، وارتمى على مقعده ، وجعـل يقبض باصابع متشنجة على ذراعي الـكرسي ، وهو يصـيح وهو يصعد الزفرات :

ــ يا الهي !.. يا لها من نكبة كبيرة !.. اهكذا يخـرج الفتى المسكين للنزهة .. وهكذا ، بدون مقـدمات ، يموت فجأة ! ! ما افظع هذا ! يا للمسكينة « مدام راكان » والدته ! ماذا عسانا نقول لها ؟.. حقا لقد احسنت صنعا بالقدوم الينا اولا .. فسنذهب معك بطبيعة الحال

ونهض الشيـخ ، واخذ يذرع الحجرة في حركات ثقيلة ، بحثا عن عصاه ، وقبعته ، وهو في الوقت نفسه يستوضحه مرارا عن بعض التفاصيل ، ويطالبه بإعادة السرد .. ويطلق التفجعات في اثر كل عبارة يسمعها من فمه !

واتجه اربعتهم الى السلم فنزلوه معا .. وعنـد بداية « ممر القنطرة الجديدة » استوقف ميشو لوران قائلا له :

ــ ابق انت هنا .. فوجودك سيكون صدمة فظيعة لها ، يحسن بنا ان نتحاشاها ... لانها ستدرك على الفور ان حادثا وقع لابنها ،

وسيضطرنا ذلك الى الاعتراف بالحقيقة كاملة قبل الوقت المناسب .. ونحن نريد ان نبلغها بتدرج قدر الامكان ، تجنبا للمفاجأة .. انتظر انت هنا ..

وازاح هذا الترتيب العبء عن كاهل القاتل الذي كان يرتجف خوفا من دخول المتجر ومواجهة الام ... فتنهد وهدأت بلابله ، وراح يمشي على طوار الشارع بأناة وهو يرتب افكاره .. وفي بعض اللحظات كان ينسى ما حدث تمام النسيان ، وينصرف الى الاهتمام بما في الواجهات الزجاجية من معروضات ، او يلتفت خلفه ليتابع بنظراته النساء اللواتي يجتزن الطريق من امامه ...

وظل في هذا الموضع من الشارع زهاء نصف ساعة ، وسيطرته التامة على نفسه تعود اليه بسرعة ...

ولم يكن تناول شيئا منذ ذلك الافطار المتأخر في ضحى النهار ، فشعر مع الطمأنينة بجوع مفاجىء ، فدخل محـلا لبيـع الحلوى والمرطبات وحشا جوفه بالفطائر الدسمة ..

اما في المتجر الكائن بممر القنطرة الجـديدة ، فكان المنظر يقطع نياط القلوب .. فمع تلطف الشيخ ميشو تلطفا شديدا في الافضاء بالنبأ ، وزعمه ان الحادث انما هو وعكة طارئة خفيفة ، فقد استطاعت « مدام راكان » ان تدرك ان حادثا وقع لابنها الوحيد ..

وعلى الفور طالبت زوارها الثلاثة بان يعرفوها بالحقيقة كاملة بغير مواربة ، وكان صوتها صورة للفزع والياس ، فالدموع تخنق انفاسها ، وتنهمر كالسيل على خديها ، وصرخاتها المختنقة الواجفة تخرج كالفحيح .. فاضطر صديقها القديم للاستكانة والرضوخ..

ولما سمعت الحقيقة المروعة ، صار حزنها فاجعـا رهيبا .. فالزفرات تهزها من فرعها الى قدمها هزا ، والعبرات والنشـيج يتعادان يهدانها هدا ، والارتياع الجنوني يرسم على وجهها وفي عينيها امارات لا توصف .. وهي تطلق بين الحين والحين صرخة حادة ، كانها ايذان بمروق سهم ناري في فقارها المحدب ويافوخها المكدود

وكانت حرية ان تسقط على الارض مغشـيا عليها ، لولا أن سوزان سندتها بيـد ، وأحاطت خاصرها بيد ، وهي تبكي معها

بدمع غزير .. وظل أوليفييه ووالده واقفين ، وقد خيم عليهما الصمت ، ينظران الى بعيد ، ولا يجسران على مواجهة ذلك المشهد الفاجع ..

وكانت الام المسكينة تتمثل أمام عينيها ابنها المسكين ، وهو يكافح الامواج في جوف نهر السين الطامي ، ثم تتمثله وقد انتفخ جوفه وتخشبت أوصاله ... ثم لا تلبث ان تتمثله طفلا رضيعا ، وغلاما ضعيفا واهن الجسم تسهر عليه وتمرضه وتذود عنه الموت كرة بعد كرة .. ثم هاهو ذا واأسفاه يموت غريقا وهو يتنزه ويلهو!

لقد منحته الحياة أكثر من عشر مرات .. وزاد حبه في قلبها مع كل نصر أحرزته على الموت ، وهي تستنقذه من علله المتوالية .. وهاهو ذا الآن قد مات .. مات بعيدا عن عينيها ، غريقا في ذلك الماء البارد القاسي ، كما يموت الكلب ... وعندئذ تفزت الى ذهنها الاغطية الدافئة التي كانت تحرص دواما على لفه بها منذ كان طفلا صغيرا .. وانهمرت دموعها ، وتعالت صرخاتها الملتاعة .. وتمنت لو ان الموت ادركها قبل هذا وصارت نسيا منسيا ..

واشتد الموقف على الشيخ ميشو ، فصار يتعجل الانصراف ، وترك زوجة ابنه « سوزان » مع « مدام واكان » ، وتأبط ذراع ابنه « أوليفييه » وانصرفا ليأخذا لوران ويذهب ثلاثتهم الى « سان اوان » ..

وفي الطريق الى هناك ، لم يكد الرجال الثلاثة يتبادلون كلمة واحدة ، وقد أسند كل منهم ظهره الى مسند العربة التي استأجروها ، وهي تهتز بهم في طريقها الطويل في هدهدة متصلة..

وعندما وصلوا اخيرا الى المطعم القائم على شاطئ النهر ، وجدوا تيريزا في فراش صاحبة المطعم ، وكانت حرارة راسها ويديها عالية ، وهمس صاحب المطعم في آذانهم انها مصابة بحمى شديدة ..

والواقع أن « تيريزا » وقد شعرت بضعفها وخوار قواها وافتقارها الى الشجاعة ، خشيت أن تعترف في هذيانها الهستيري بجريمة القتل العمد ، فآثرت ادعاء المرض والايواء الى الفراش . وفي الفراش لاذت بالصمت التام ، وحرصت على اغلاق فمها وعينيها ، لان النظرات الزائغة قد تكون واشيا فصيحا عما في اعماق

النفس ، ورفضت ان تكلم احدا أو ان ترى احدا ، وغرقت تحت الاغطية وبين الوسائد ، وأرهفت اذنيها جيدا لكل كلمة تقال ... ولكن اطباق جفونها لم يمنع ان ترى صورة لوران وكاميلوس ، وهما تتصارعان فوق حافة الزورق ، ثم تراءى لها زوجها وهو يصارع الامواج ، يعلو فيها ويهبط شاحب الوجه زائغ النظرات .. فكانت هذه الرؤى كافية لدفع الدم حارا في عروقها المكدودة ..

وحاول ميشو العجوز ان يتحدث اليها ويسرى عنها ويعزيها ، فصدت عنها اشارة تدل على نفاد الصبر ، وأدارت له ظهرها ، ثم انفجرت منتحبة .. فقال صاحب المطعم :

ــ دعها وشأنها ياسيدي .. فهي ترتجف من ادنى صوت .. انها بحاجة شديدة الى الراحة ، ولا شيء سوى الراحة ...

وفي الطابق الاسفل ، في البهو الكبير الذي تملؤه الموائد ، جلس شرطي يكتب محضرا بالحادث ، ونزل الى هناك ميشو وابنه ومن ورائهما لوران ، وبادر أوليفييه فاظهر للشرطي هويته ، وعرفه رتبته ووظيفته في ادارة الشرطة ، فكان ذلك كفيلا بانهاء الشكليات جميعا في اقل من عشر دقائق ..

وكان الملاحون الذين قاموا بالانقاذ موجودين ، فرووا القصة بكل تفاصيلها ، ووصفوا سقوط الثلاثة الى النهر على انهم شهود عيان ، فلو فرض ان لدى ميشو وابنه ادنى اشتباه لكانت تلك الشهادة الحاسمة كفيلة بالقضاء على كل شك ، ولكنهما في الحقيقة لم يتشككا اطلاقا في اقوال لوران .. بل انهما على العكس قدماه الى الشرطي على انه اعز اصدقاء الفقيد .. وحرصا على أن يسجل الشرطي ما جاء في شهادة الشهود من القائه بنفسه ــ بعد انقاذه ــ للبحث عن صديقه معرضا حياته للخطر !

وفي صباح اليوم التالي ، نشرت الصحف ذلك الحادث ، وأفاضت في سرد التفاصيل ، وذكرت كل شيء عن الام الثكلى ، والارملة المفجوعة ، والصديق الشجاع النبيل ...

وعندما اقفل محضر الحادث ، وقيدت الحادثة قضاء وقدرا ، تنفس لوران الصعداء .. فمنذ اللحظة التي انشب فيها القتيل اسنانه في عنقه ، وهو يشعر وكأنه ميت في دخيلة نفسه .. يتحرك

ويتكلم بطريقة آلية تماما ، طبقا لخطة موضوعة منذ زمن طويل.. فغريزة حب البقاء هى التى كانت تدفعه وحدها للتصرف والكلام ، ولولا هذا لانهار تماما !

والآن ، وقد تأكد لديه انه افلت من العقاب فعلا ، اشرق عليه ضوء جديد ، وعادت الدماء الحارة الى التدفق فى اوصاله وعروقه تطالبه باستئناف المألوف من حياته الحافلة بالمطامع والرغبات ..

وقال للعجوز ميشو :

ــ اننا لا نستطيع ان نترك هذه المسكينة راقدة هنا .. انها قد تكون معرضة لمرض خبيث .. فمثل هذه الصدمات كثيرا ماتحدث حمى خطرة على الحياة ، يجب ان نعيدها الى باريس باى ثمن .. تعال معى ونقنعها بالعودة معنا

وصعدا الى الطبقة الثانية ، والحا على تيريزا ان تاتى معهما الى ممر القنطرة الجديدة ، فلما سمعت تيريزا صوت الشاب وهو يحدثها ، فتحت عينيها على سعتهما ونظرت اليه مليا ، وكانت ترتجف ، وفى نظرتها اجفال وتوجس ، وبعد ان اصغت لتوسله ، نهضت جالسة فى الفراش من غير أن تتكلم ، فانصرف الرجلان وتركاها وحدها مع صاحبة المطعم ، وبعد أن اتمت ارتداء ثيابها نزلت السلالم وهى تترنح ، واستقلت المركبة مستندة الى ذراع اوليفييه ..

وانقضت الرحلة فى صمت وسكون واجمين .. واثناء الرحلة وجد لوران من الجسارة وقلة الاحتشام ما مكنه من وضع يده على يد الارملة ، والتربيت عليها مواسيا وهو جالس فى مواجهتها ، ولكنها لم ترفع راسها المطرق ، بل ظل ذقنها دفينا فى صدرها ، وظل الحال على ذلك الى ان وصل الركب الى شارع مازاين .. وكان يحس بيدها ترتجف داخل راحة يده ، ولكنها لم تجذبها ، حتى كاد العرق المنصبب من الراحتين الساخنتين ان يلصقهما الصاقا .. وحتى خيل اليهما ان الدم يتدفق من قلب كل منهما الى قلب الآخر عن طريق ذلك الاتصال اليدوى ..

وعندما توقفت العربة عن المسير ، هبط منها ميشو وابنه

اوليفييه أولا ، وانتهز لوران هذه الفرصة وانحنى فوق عشيقته بخعة وقال لها :

ــ تشجعى ياتيريزا .. فامامنا انتظار طويل .. تذكرى هذا ..

ففتحت المرأة فمها لاول مرة منذ وفاة زوجها ، وقالت له بصوت هامس كالنسيم :

ــ ساتذكر ...

وبسط اوليفييه يده كى يسندها ويعينها على النزول من العربة وفى هذه المرة دخل لوران معهم المتجر ، وكانت مدام راكان فى حالة هذيان ، فادخلتها جارتها بائعة الحلى المزيفة وسوزان فراشها .. وجرت تيريزا نفسها جرا الى فراشها فى حجرتها التى كانت تنام فيها مع زوجها ، وساعدتها سوزان على خلع ثيابها ــ أو على الاصح ثياب صاحبة المطعم ــ ولما راى لوران أن كل شىء على ما يرام ، انصرف سيرا على قدميه ببطء

وكان الوقت قد جاوز منتصف الليل .. والهواء البارد يكتسح الشوارع الخالية بقوة ، ولا شىء يقرع اذنى الشاب الا وقع خطواته على الارض الصلبة المرصوفة بالحجارة ..

وافاده برد الهواء وانعش جبينه الملتهب ، واخذ يسترجع فى ذهنه بارتياح تفاصيل الجريمة واطوارها التى نجح اخيرا فى القيام بها بعد طول اعداد وتدبير ، وكان نجاحه شاملا كاملا ، وستطوى صفحتها ، ولن يذكر الناس من امرها شيئا بعد بضعة أيام ..

وقال لنفسه :

ــ الآن سيطيب لى ان استقبل الحياة بلا خوف ولا قلق، وسوف انتظر بلا فزع او توجس مرور الوقت المناسب لاتزوج تيريزا واحظى بقربها كيفما اريد ...

وتنفس الصعداء كانه يزيح عن صدره كابوسا ثقيلا ، واخذ يملأ صدره فى ارتياح بهواء الليل العليل

ان وقت تدبير الجريمة كان شاقا .. وكان اشق منه وقت العزم على ارتكابها ، وتحديد الزمان والمكان ، وحتى اللحظة الاخيرة كان التردد يكاد يرده عما عقد العزم عليه ، فاحتاج الى كل ارادته

الحيوانية ليندفع فى الطريق المرسوم بلا امهال ولا تسويف ..

وكان من شأن هذا كله ، ان يعقب لديه « رد فعل » شديد .. فكأنه يفيق من دوار ، او من خمار ثقيل ..

وما ان وصل الى الحجرة التى يسكنها فى قمة البناء العميق ، حتى استلقى على فراشه وراح فى سبات عميق ...

٦

الفصل الرابع عشر

اليقين

وفى اليوم التالى ، استيقظ لوران موفور العافية ، فقد نام نوما عميقا جدا .. وكان للهواء البارد الذى ينصب عليه من الكوة المفتوحة فى السقف اثره فى تنشيط دمه ... ولم يكن يتذكر شيئا مما حدث فى اليوم السابق ، لولا الالم الشديد الذى شعر به فى اسفل عنقه ، من موضع الجلد المنتزع بين اسنان كاميلوس ، ولولا هذا الالم لاعتقد ان الامر كله حلم مزعج ، وانه اوى الى فراشه بعد العاشرة كما كان من عادته ان يفعل فى كل ليلة بعد سهرة هادئة.. اما وهذه القمة من جسمه تلذعه كالابر المحماة فى النار ، فلا سبيل الى تناسى الموضوع ..

وازاح بيده طرف قميص نومه من عند الياقة ، ونظر فى المرآة الرخيصة المعلقة على جدار « زنزانته » ، ووجد الجرح احمر قانيا ، على شيء من العمق ، فى حجم المليم ، تتوسطه بقع سوداء داكنة ، وكان الدم الذى سال من الجرح قد جف فى خيوط على كتفه ، تحت اذنه اليمنى بقليل ...

وصب لوران على جسمه العارى كمية من الماء ، وهو يطمئن نفسه بأن هذا الجرح سيلتئم رغم بشاعة منظره ، فى مدى بضعة ايام على الاكثر ، ثم ارتدى ثيابه وتوجه الى مكتبه بهدوء تام كالمعتاد ، وهناك قص على الجميع القصة بصوت يرتجف من التأثر، وعندما طالع زملاءه ما نشرته الصحف من الجريمة وعن دوره « النبيل » فيها ، اعجبوا به واردهوا برمالته ، وصار على العور بطلا حقيقيا ..

وظل موظفو شركة سكة حديد اورليان ، ولا حديث لهم الا ما

فعله زميلهم الشجاع لوران ... وكان يزهيهم أن واحدا منهم واجه الموت غرقا ...

ولم يعد هناك ما يقلق بال لوران سوى أمر واحد ... فموت كاميلوس لم يثبت بطريقة رسمية قاطعة .. اجل ان زوج تيريزا قد مات ، ولكن القاتل لا يطمئن باله الا اذا ظهرت جثته ، كي يمكن اصدار شهادة وفاة تحرر تيريزا رسميا من قيود الزوجية !..

وكان البحث قد استمر يومين بعد الحادث ، ولكن بلا جدوى .. وصار من الراجح ان جثة كاميلوس جرفها التيار الى فجوة فى اساس احدى الجزر الكثيرة فى تلك المنطقة .. وهناك استقرت ، ومع ذلك لم يزل هناك غواصون يجوبون نهر السين طمعا فى الحصول على المكافأة ان اكتشفوا جثة كاميلوس واكان الضائعة ..

وحرص لوران على التوجه الى مشرحة باريس كل صباح ، لانه اقسم أن يتولى هذا الموضوع بنفسه ، ولم يزحمه عن ذلك الواجب ما احسه من كراهية وتقزز فى الزيارة الاولى ، حتى ان معدته اضطربت وغالبه القىء بصاء شديد ... وفى طريقه الى المكتب صباحا يدخل المشرحة ، ويتفرس فى وجوه الغرقى المرصوصين وراء الواجهات الزجاجية ..

وفى كل مرة كان يخيل اليه أنه تعرف على وجه كاميلوس بين تلك الوجوه ، فيدق قلبه فى صدره دقا عنيفا .. ثم يحس كان انسانا طعنه فى فؤاده طعنة مصمية ..

كان يجمع بين النقيضين فعلا : فهو اساسا يريد أن يطمئن الى وجود جثته ليستخرج شهادة الوفاة الرسمية ، وفى الوقت نفسه يفرق اشد الفرق من رؤية ضحيته امامه ..

وتسببت هذه الزيارات اليومية للمشرحة فى اصابته بالكابوس فاصبح لا يفيق الا وراسه يكاد ينفجر .. وحاول مرارا ان يقاوم الخوف ، ويقنع نفسه بانه ليس طفلا حتى يليق به مثل ذلك العمل الذى لا يليق الا بضعف النساء ..! ومع ذلك كانت اعصابه تتمرد على ارادته الجبارة كلما دخل المشرحة ..

ولم يكن لوران الشخص الوحيد الذى يتوجه الى المشرحة كل صباح .. فهناك كثيرون يسبقونه فى الحضور ، وكثيرون غيرهم

يأتون بعده ...

وبعد اسبوع أوشكت مقاومة لوران على الانهيار .. فهو يحلم كل ليلة بالجثث التى رآها فى الصباح ، ويتمثل مآسيها على غرار ما شهده من غرق كاميلوس ، ويخيل اليه أن وراء كل غريق قصة زوجة خائنة لها عشيق دفع الزوج الى حياض الموت ، أو زوج له عشيقة دفعته الى اغتيال زوجته ليخلو لهما الجو ...

وهذا التعذيب اليومى الذى فرضه على نفسه ، متجلدا للتقزز، وصل فى النهاية الى الذروة .. فقرر انه لن يعاود الذهاب الا مرتين بعد ذلك ، فلما دخل الى المشرحة فى صباح اليوم التالى ، اذا بقلبه يقفز داخل صدره قفزة مروعة .. فهناك ، فى أحدى الصناديق الزجاجية مسجى كاميلوس .. وكانت عيناه مفتوحتين ، على سعتهما ، تحملقان فيه ، وراسه مرفوع الى أعلى قليلا ...

واقترب القاتل من الزجاج ببطء ، كانه يسير فى نومه ، وهو عاجز كل العجز عن تحويل عينيه عن فريسته ، ولكن اختلاجة ندم واحدة لم تخامر هذا الانسان ، وهو يرى جريمته امام عينيه .. لان القشعريرة الخفيفة التى سرت فى جلده لم تكن قشعريرة ندم واستنكار ، بل مماثلة لما كان يحس به كلما راى جثة بشعة ... مجرد قشعريرة اشمئزاز ، حتى انه شخصيا كان يتوقع أن يكون تاثره لمراى الجثة اكثر من هذا .. فكل احساسه الى جانب الاشمئزاز هو السرور لانتهاء متاعبه وقلقه وزياراته المزعجة للمشرحة العامة ..

وظل خمس دقائق كاملة بلا حراك ، غارقا فى أفكار غير محددة ، سجل بغير قصد منه جميع الخطوط البشعة والالوان الفظيعة التى تكون منها الصورة التى تحت عينيه ..

والحق أن كاميلوس كان بشعا فى صورته الاخيرة ، وقد قضى فى جوف الماء اسبوعين ، ملأ فيهما الماء جوفه ، ومع هذا ظلت اسارير وجهه على حالها المعهود تقريبا ، وان كان الجلد قد اكتسب لونا ضاربا الى الصفرة مع اخضرار .. والتصق شعره بعارضيه ، والتوت شفتاه الى جانب واحد من جانبي وجهه ، فكأنه يبتسم

ابتسامة ساخرة .. وانعوجت اسنانه من طرف لسانه وقد تضخم واسود ..

وأما الجسد فبدا وكأنه كتلة من اللحم المتحلل ، فما أشد ما تعرض له بدنه الهزيل من التبديل والتغيير ! فهذه عظام الطوق من فوق قفصه الصدرى وقد احترقت اللحم المتآكل وبدت عارية للعيان ، وأضلع القفص الصدرى نفسه صنعت لها خطوطا سوداء افقية فى ذلك اللحم المتآكل .. فصدره كله عبثت به يد التحلل الطبيعى ، أما ساقاه فصمدت أكثر مما صمد صدره ، فهما متخشبتان تماما ..

نظر لوران الى كاميلوس ، وهو على هذه الحالة ، فى امعان شديد .. فما من جثة من جثث الغرقى التى شاهدها فى المشرحة من قبل لها مثل هذه البشاعة المقيتة ، على ضآلتها الشديدة ، ترى كيف كانت المسكينة تيريزا الشابة الغنية الفوارة الدماء بالصحة والعنفوان تطيق الحياة فى احضان هذا المسخ الطليل ؟

وأخيرا ، عندما تسنى للوران أن ينتزع نفسه من هذا التأمل الطويل الكئيب الذى استبقاه مسمرا فى مكانه أكثر من خمس دقائق ــ بدت وكأنها دهر لا ينقضى ــ غادر المشرحة ، وجد السير فى طريق أرصفة السين ، وهو يسائل نفسه :

ــ من ذا يقول أن هذه جثة كاتب كان مرتبه الفا ومائتى فرنك فى السنة ، ربته أمه بين عشرات الاغطية وسقته عشرات العقاقير !

وبعد بضع خطوات فى الهواء المنعش الطلق ، عاد يخاطب نفسه قائلا :

ــ هذا ما جنيته انا عليه .. هذه فعلة يدى .. ولكنه كان بغيضا يشين ثوب الحياة الذى ارتداه بغير حق ..

واتجه مباشرة الى مسكن الشيخ ميشو ، فأخبره انه اكتشف من فوره جثة كاميلوس فى المشرحة العامة ...

وفى مدى ساعتين كان مفتش الشرطة المتقاعد وابنه قد تمكنا من اتمام جميع الاجراءات الشكلية ، وبها تم التعرف على الجثة ، وحررت شهادة الوفاة ووريت الجثة التراب ..

وبتحرير شهادة الوفاة ، حصلت تيريزا على وثيقة تحررها الرسمية .. تلك الوثيقة التى كانت الغاية الكبرى من كل هذا الذى حدث ، فاحس لوران أن متاعبه قد انتهت تماما ، وسمح لنفسه بكل ثبات ويسر أن ينسى جريمته وما اقترن بها فى ذاكرته من مناظر كريهة مزعجة ، وان لم تكن مؤلمة ... لان الاحساس بالالم والندم ليس له وجود عند ذلك الحيوان البشرى ..

الفصل الخامس عشر

دموع

أغلق متجر ممر القنطرة الجديدة ثلاثة أيام ، فلما فتحت ابوابه مرة أخرى للعملاء بدا أحلك ظلمة واكثر رطوبة من ذى قبل .. فكأن اكوام السلع المبعثرة والمكدسة من فوقها طبقة من التراب فى حالة حداد — هى ايضا — على الابن الوحيد لمدام راكان ، وفى واجهتى المتجر كان كل شىء يبدو مهملا تمام الاهمال ، ووجه تيريزا بدا من بين البضائع والقبعات والطواقى اشد شحوبا ، واشد جمودا وغباء ..

وكانت الكارثة قد حركت مشاعر جميع النسوة الصالحات اللواتى يملكن حوانيت او واجهات تجارية صغيرة فى ذلك الممر الصغير ، وكانت المرأة التى تبيع الحلى المقلدة فى مواجهة متجر مدام راكان تشير لزبائنها باصبعها السبابة الى سحنة الارملة الشابة ، وكأنها تعرض عليهم نموذجا غير شائع من السلع غير المقلدة !

وقد قضت مدام راكان وتيريزا الايام الثلاثة فى الفراش ، من غير أن تتحدث احداهما الى الاخرى .. جالستين بين الوسائد الكثيرة.. والعجوز تنظر الى السقف نظرة ثابتة لا تتغير ، يغلب عليها الذهول.. فوفاة وحيدها كانت بمثابة ضربة هائلة من فأس حطاب على ام رأسها ، فهى لا تدرى ماذا يكون من امرها ولماذا تعيش بعد تلك الفجيعة الحاطمة ، التى ليتها كانت القاضية !

وكانت تقضى ساعات طويلة تباعا لا تتحرك فيها عضلة واحدة ، تائهة فى بحر اليأس ، ملقاة فى قاع هاوية القنوط .. ثم فجأة تنتابها الهستيريا فتصرخ صرخات ثاقبة وتولول وتهذى !

وتيريزا ، فى الحجرة الاخرى يبدو عليها معظم الوقت انها نائمة ،

لانها حريصة على تحويل وجهها باستمرار الى ناحية الحائط ، حتى لا تواجه احدا ، وقد غطت نفسها جيدا ، وحجبت عينيها ..

وكانت سوزان ، زوجة اوليفييه هى التى تتولى العناية بالمرأتين المروعتين ، فهى تتنقل بلا انقطاع من سرير هذه الى فراش تلك.. سيرا على أطراف اصابعها ، ولكنها عجزت تمام العجز عن اقناع تيريزا بتحويل وجهها عن الحائط وتبادل اية كلمة معها ، وعجزت عن التسرية عن مدام راكان التى كانت دموعها تنهمر مدرارا متى سمعت اى صوت بشرى يخاطبها ..

وفى اليوم الثالث ، طرحت تيريزا عنها اغطيتها ، وجلست بسرعة ، كأنها اتخذت قرارا حازما مفاجئا ، ودفعت شعرها الى مؤخر رأسها ، ووضعت راحتيها على عارضى رأسها ، كأنها تريد أن تستوثق من وجود دماغها فى موضعه المألوف فوق كتفيها ، ثم نهضت فجأة من فراشها .. وكانت أوصالها ترتعد من شدة الحمى ، وقد انتشرت على جلدها بقع كثيرة حمراء اللون ...

لقد كانت هذه الايام الثلاثة كأنها بضعة اعوام انقضت من حياتها هباء ..

وعندما دخلت عليها سوزان ادهشها ان تجدها نهضت ، وبصوت هادىء بطىء نصحتها ان تعود الى الرقاد ، ولتستأنف استجمامها ، لانها بحاجة شديدة اليه ، فلم تعرها تيريزا التفاتا .. وراحت تبحث عن ثيابها بحركات سريعة مرتعشة الى ان وجدتها ، وارتدتها. ولما اتمت ارتداءها توجهت الى المرآة وتطلعت الى نفسها فيها ، ودلكت عينيها ، ثم مسحت بيديها على صفحة وجهها ، كأنما تمسح عنه شيئا ما ..

وعندئذ ، ومن غير ان تتلفظ بكلمة واحدة اجتازت حجرة الطعام، ثم دخلت حجرة نوم مدام راكان ..

وكانت السيدة العجوز فى احدى حالات هدوئها الذاهل ، فلما دخلت عليها تيريزا ادارت رأسها وتتبعت عيناها ابنة اخيها التى تقدمت من فراشها ووقفت بجوارها صامتة واجمة ..

ولبثت المرأتان تتبادلان النظرات فى سكون .. الصغرى تنظر الى عمتها فى قلق متزايد ، والكبرى تبذل مجهودا واضحا كى تبعث

ذاكرتها من رقادها ، ولما تمكنت آخر الامر من التعرف عليها ، مدت مدام راكان ذراعيها الواهنتين المرتعشتين ، وطوقت عنق تيريزا وصرخت قائلة :

— يا لولدى المسكين ! يا لوحيدى كاميلوس !

وبكت الام ، وجفت دموعها فوق بشرة الارمل الحارة ، التى كانت تخفى طول الوقت عينيها الجافتين بين ثنايا غطاء السرير ، وهى منكبة فوق عمتها تحتضنها .. وظلت تيريزا فى ذلك الوضع الى أن كفت العجوز عن الانتحاب ، وهدأت أنفاسها من فرط الاعياء ..

وكانت تيريزا منذ وقوع جريمة القتل ، تعتبر هذا اللقاء الاول بينها وبين عمتها المفجوعة فى وحيدها ، أخشى ما تخشاه .. وظلت فى عزلتها فى الفراش تفكر فى ويلات ذلك اللقاء ، وتحسب له ألف ألف حساب .. حتى قررت أن تقطع الشك باليقين ، وقد طال بها التفكير فى الدور الذى سيكون عليها ان تؤديه ، والذى يعتبر اللقاء الاول فاتحة له بل بمثابة « المفتاح الموسيقى » لسلوكها كله فى فترة الترمل الطويلة ...

ولما وجدت أن مدام راكان هدأت بعض الشىء ، وقد سرت عن نفسها ، شغلت بها وراحت تنصح لها بالتماسك والتجلد ، والنهوض لتنزل الى متجرها وتتشاغل بالعمل ..

وكانت العجوز بعد هذه الصدمة الحاطمة قد ارتدت تقريبا الى مرحلة الطفولة .. فلما ظهرت بنت اخيها امام عينيها ، انفجرت دموعها الحبيسة ونفست عنها كربها الضخم ، وافادت فى رد ذاكرتها ونشاطها الذهنى اليها ، فوعت حالها وحال الناس من حولها ...

وشكرت العجوز لسوزان عنايتها الحانية وسهرها على راحتها ، وكانت تتكلم فى وهن ، بيد أنها على كل حال لم تكن فاقدة الرشد أو ذاهلة تهذى .. وجعلت ترقب تيريزا وهى تروح وتجىء ، وفجأة انفجرت باكية مرة أخرى ، ونادتها بعد قليل ، وهدهدتها وربتت عليها وقبلتها وهى تنتحب ، وقالت لها بصوت مضعضع تخنقه العبرات :

— لم يعد لى فى الدنيا احد سواك ياصغيرتى ...

وفى ذلك المساء ، رضيت مدام راكان ان تنهض من فراشها ، وان تحاول تناول شىء من الزاد .. وتسنى لتيريزا عندئذ ان تتبين بوضوح اية ضربة هائلة نزلت بساحة عمتها وكتب عليها أن تتحملها ان ساقى العجوز المسكينة صارتا اثقل من ذى قبل ، واشتد وهنا وارتعادا .. حتى انها يجب أن تستخدم عصا لتجر نفسها جرا الى حجرة المائدة ، ولما بلغتها شعرت وكأن جدرانها تدور من حولها وتتراقص ..

ومع هذا الضعف كله ، اصرت فى الصباح التالى مباشرة على فتح ابواب المتجر ، لانها خشيت ان تصاب بالجنون لو انها بقيت بمفردها فى حجرتها ...

وبتثاقل شديد هبطت السلم الخشبى ، وهى تضع قدميها كلتيهما معا على كل درجة من الدرجات المتقاربة ، لصعوبة حركة الساقين .. وشقت طريقها بعناء بالغ الى مقعدها المعتاد ...

ومنذ ذلك اليوم ، وهى لا تغادر هذا المكان ، فى وجومها الهادىء .. وبجوارها تستقر تيريزا فى اطرافها .. مستطرة ...

واستعاد المتجر هدوءه الحزين ...

الفصل السادس عشر

المقعد الشاغر

كان لوران يأتي الى المتجر في المساء بين الحين والحين .. بمعدل مرة كل يومين أو ثلاثة أيام . وكان يمكث في كل مرة قرابة نصف الساعة ، يتحدث الى مدام راكان ، ثم يغادر المتجر من غير أن يعير وجه تيريزا نظرة واحدة

وكانت العجوز تعتبره منقذ حياة بنت أخيها ، وصديقا نبيل القلب بذل كل ما في وسعه كي يرد ابنها اليها .. ولذا كانت ترحب به في بشاشة وحنان لا مزيد عليهما ..

وذات مساء من أمسيات الخميس ، كان لوران في المتجر عندما حضر ميشو وجريفيه . وكانت الساعة تدق في تلك اللحظة ثماني دقات .. وكان كل من الرجلين قد قرر بينه وبين نفسه انه لابد من بعث العادة التي انقطعت بمناسبة الحادث الأليم ، وهي عادة قضاء السهرة عند مدام راكان في مساء الخميس ، لأن تلك العادة متى اتصلت بعد انقطاع ، أشعرت العجوز المسكينة ان الحياة متصلة . وخفف ذلك عنها بعض ما تحدثه عزلتها الحزينة من وحشة قاسية . وهكذا وصل الاثنان في لحظة واحدة ، كأنما دفعتهما قوة واحدة ..

وبعدهما بقليل حضر أوليفييه وسوزان ..

وصعد الجميع الى حجرة المائدة ، وأسرعت مدام راكان — التي لم تكن تتوقع قدوم احد — فأوقدت المصباح الكبير وأعدت الشاي للضيوف القدامى

وما أن استقر الجميع في مواضعهم ، وبين يدي كل منهم فنجانه الساخن ، وأفرغت أمامهم أدوات الدومينو بعد طول استكانة في صندوقها ، أجالت الام الثكلى نظراتها بين ضيوفها المعهودين ثم

انفجرت باكية ..

لقد كان هناك مقعد شاغر .. مقعد وحيدها ..

وحز أساها الموجع في قلوب ضيوفها ، ونزل عليهم نزولا شديد الوقع . فتصلبت ملامح وجوههم جميعا ، وأحسوا الحرج لأنهم احياء وهو ميت .. وخجلا من أنفسهم لأن الميت لم تبق له في نفوسهم أي ذكرى حية ، في حين أن تلك الام المسكينة تتلظى بذكراه التي لا تفارقها ...

وقال الشيخ ميشو بشيء من نفاد الصبر :

ــ على رسلك يا مدام راكان .. على رسلك .. لا ينبغي أن تحزني كل هذا الحزن ، والا جنيت على نفسك جناية وبيلة ... وأصابك المرض

وتنحنح جريفيه وقال لها :

ــ كلنا هالك ، وسلالة هالكين ، كما تعلمين ..

وقال أوليفييه بوقار متكلف رنان :

ــ دموعك ، مهما بلغ مقدار غزارتها ، لن تعيد ابنك اليك ...

وغمغمت سوزان قائلة :

ــ بربك يا مدام راكان ، لا تكسري قلوبنا ..

ومع كل عبارة من عبارات التشجيع والتعزية ، كانت دموعها تزداد انهمارا ، وانتحابها يزداد عنفا ، فقال ميشو :

ــ صبرا جميلا يا مدام راكان .. ! شيئا من الشجاعة والتجلد ! يجب أن تدركي تمام الادراك أننا أتينا الليلة جميعا لنسري عنك فلا تنكدي عيشنا . وحاولي أن تنسي .. سنلعب برهان .. وسنراهن معا بمليمين .. ما قولك ؟

فبذلت العجوز جهد المستميت لتكفكف دموعها . ولعلها كانت شاعرة بهدوء سرائر ضيوفها وبرود قلوبهم ، وان دموعها لا محل لها بينهم . وبيد مرتعشة راحت تلعب الدومينو .. وكان من العسير عليها أن تتبين الاوراق التي في يديها من خلال ستار الدموع التي وقفت حائرة بين أهدابها المقروحة ..

ولعبوا ...

وكان لوران وسوزان يرقبان ذلك المنظر الفاجع بهدوء تام . بل

أن الشاب كان مسروراً في دخيلة نفسه لاستئناف عادة الاجتماع والسهر مساء الخميس من كل اسبوع ، لانه في الحقيقة كان يتوق الى تلك السهرات لانها ستسهل عليه الوصول الى أغراضه . فضلا عن أنه كان يشعر بالارتياح وهو بين هؤلاء القوم الطيبين الذين اعانوه على الافلات من دقائق التحقيق ومزالقه .. ووجودهم في الواقع يتيح له النظر بأمان الى محيا عشيقته ...

أما تيريزا ، الارمل الشابة ، فقد جلست في ثيابها السود ، مطوية على نفسها كعادتها ، لا يبدو عليها شيء . وعندما كانت نظرات عشيقها تقع عليها ، كانت تواجهه بثبات تام ، فيشعر انها لم تزل له قلبا وقالبا ..

الفصل السابع عشر

تحوّل

ومرت على هذا المنوال سنة وثلاثة أشهر .. واختفت بالتدريج مرارة الساعات الاولى من الجريمة ، وجلب كل يوم جديد معه سكينة نفس وهدوءا واستسلاما . واستأنفت الحياة سيرتها الاولى من الرتابة والتشابه والركود الذي يعقب الازمات الكبرى ..

وسرعان ما وصل لوران ما انقطع من عادات .. فصارت زيارته للمتجر كل مساء بانتظام ، بيد أنه لم يعد يتناول طعام عشائه هناك كل ليلة كما كان الحال فيما مضى ، بل يصل الى المتجر في منتصف العاشرة ثم يغادره عند ما تحين ساعة اغلاق الابواب ... حتى أنه ليحق لك ان تقول انه بحضوره كل ليلة انما يؤدي واجبا عليه نحو المرأتين المحزونتين .. واذا اتفق له التخلف عن الحضور ليلة من الليالي ، بادر بالاعتذار عن تخلفه في الليلة التالية في تواضع التابع الامين . واما في أيام الخميس ، فهو يقوم بمساعدة مدام راكان في اشعال النار وتقديم واجبات الضيافة للزوار المتادين .. فكان بهذا المسلك موضع رضا العجوز واعزازها

وكانت تيريزا تنظر في هدوء الى رواحه وغدوه من حولها ، وقد فارق محياها بمرور الايام ذلك الشحوب الواجم ، وبدت الان أحسن صحة واوفر عافية ، واكثر سخاء بالابتسام وارق حاشية مع الناس .. وصار من النادر ان ترتسم على زاويتي فمها تلك الخطوط التي تدل على الالم والارتياع ..

ولم يحاول العاشقان أن يتقابلا على انفراد .. ولم يحاول أحد منهما ان يضرب للاخر موعدا للقاء ، أو يطلب منه تدبير مثل ذلك الموعد ... بل انهما لم يتبادلا قبلة واحدة على سبيل الاختلاس .

وكانما تولت جريمة القتل التى ارتكباها فى سبيل غرامهما اخماد الجذوة المتاججة فى دمائهما ، او كانما كان فى ذلك الاغتيال الغادر ارضاء كاف لشيطان الرغبة الذى يكمن فى جسديهما ، فلم تعد بهما حاجة ملحة الى الاحضان والقبلات .. فالحرم الذى اشتركا فيه كان تجربة حسية من نوع صارخ ، جعلتهما يعزفان عن تعانقهما السابق عزوف التقزز والاشمئزاز ..

ولم يكن ذلك التباعد لديهما نتيجة صعوبة فى تدبير الملتقى .. كلا ، فان الفرص الآن اسهل مما مضى بكثير جدا .. فالام الثكلى العجوز قد تدهورت صحتها ، وصارت اكثر وقتها شاردة او مهومة تاخذها السنات تباعا .. واذا همت بالحركة لم تستطع المشى الا ببطء شديد ، ولا الصعود او النزول الا بمشقة مضنية .. فهى لا تتحرك ، ولا تكاد تنتبه لما يدور حولها من الامور . ولايمكن ان تعتبر عقبة جدية ولا شبه جدية .. تحول دون احتلاس الخلوة مرارا عديدة فى اليوم الواحد .. لان الدار فى الطبقة التى تعلو المتجر تحت تصرفهما الكامل . وفى وسعهما ان شاءا ان يتلاقيا فى الخارج . ولكنهما لم يفكرا فى شىء من ذلك ، وكانا يقضيان الوقت كله فى الحديث الهادىء أو يتبادلان النظر الطويل من غير ارتباك أو حمرة خجل .. اما الحب فلم يعد يعريهما بشىء ، وكأن شياطينه جميعا قد تبددت أو كأنهما نسيا تمام النسيان ما كان بينهما من عناق متاجج يكاد يحرق اللحم ويطحن العظام ...

بل انهما اكثر من هذا وذاك ، كانا يتحاشيان ــ على غير اتفــاق سابق ــ كل فرصة للاختلاء . واذا اضطرتهما الظروف الى ان يتلامسا بالاكف عند المصافحة مثلا شعرا بعدم ارتياح . واذا فرضت عليهما الظروف الخلوة وحدهما فى المتجر ، كان تذهب مدام راكان الى دورة المياه ، كان الصمت يسود بينهما ، لانهما لا يجدان ما يتحدثان فيه ... ويشفق كل منهما من تبلج هذا الفتور بينهما بصورة سافرة

ولكن يبدو أن كلا منهما كان يدرك تمام الادراك حقيقة الدوافع التى تجعل كلا منهما غير مستريح الى الاختلاء بصاحبه . ويزعم لنفسه انها سياسة يمليها الحذر والحرص ، وان التباعد والفتور انما هما من وحى الحكمة والحصافة ، وان الهدوء الذى يســود جسديهما ورغبتهما انما هو شىء اختيارى !

وبين الحين والحين كانا ــ كل منهما على حدة ــ يسمحان لنفسيهما بالاسترسال مع الآمال وتصور المستقبل الذى طالما خاضا فى ذكره معا ، واشتركا فى تزويق اكنافه وحواشيه ..

وفى البداية كانت تيريزا اهدأ العاشقين بالا .. فلا شىء يثيرها فى هذه الفترة .. وانما هى تترك لاعصابها الفرصة كاملة لتسترخى ، ومتى جن الليل وأوت الى فراشها ، تقلبت فيه وحدها وهى تشعر بالسعادة الكاملة التى حرمت منها منذ سنوات طويلة ، فهى الآن حرة غير مرتبطة بذلك المخلوق العليل المتحكم .. لها أن تفتح النــافذة وتنام فى الهواء الطلق ، ولها ان تتقلب ، وتبسط ذراعيها .. ولا يوقظها الغطيط ولا الانين ، حتى لقد كان يخيل اليها احيانا أن زواجها من كاميلوس لم يكن حقيقة ، بل مجرد كابوس انتهى عهده .. وانها هى فى الحقيقة عذراء ، تنام فى حجرتها وحدها ، بين ستائر الفراش البيضاء ، فى انتظار الفارس الذى يفوز بزهرتها النقية !

وقلما كان ذهنها يفكر فى أمر لوران .. ولم يكن ذلك يحــدث الا فى بعض الليالى التى تضطرب فيها اعصابها .. كما هو الحال مع النساء دائما فى بعض فترات من الشهر ...

وفى غضون العام الاخير ، جعلت تسلى نفسها بقراءة الكتب التى كان يقتنيها كاميلوس .. ثم وصلت اسبابها بمكتبة تؤجر الكتب القديمة ، وتعلق قلبها بابطال الروايات الشعبية التى تطالعها ..

وقد اثر عليها هذا الشغف بالقراءة تاثيرا كبيرا وغير مزاجها .. فصارت ذات حساسية عصبية واضحة ، بحيث تضحك احيانا او تبكى بغير سبب ظاهر ..

وكانت تعجب احيانا لامرها .. ولكن الواقع ان استقرار سريرتها الداخلى قد انهار وهى لا تشعر ، وان هذه الحساسية هى اعراض ذلك الصراع الدفين فى اعماقها ..

وفى لحظات متباعدة كانت تتذكر كاميلوس ، فترتجف رعبا ، ولا تلبث ان تصرف ذلك الخاطر عنها ، وتستنجد بذكرى لوران ، وتشعر نحوه بحنين جارف ، تقاومه باستماتة .. بحيث تتقاذفها حالات متناقضة ، ففى بعض الاوقات تفكر فى الفرار اليه لتتزوجــه

فورا ، وهى الساعة التالية تقسم بينها وبين نفسها الا تراه ما عاشت!

والحقيقة ان الروايات الخيالية التى طالعتها مسئولة الى حد كبير عما طرأ عليها من اضطراب شديد .. لان هذه الروايات حافلة بل طافحة بحديث الشرف والعفة والطهارة ، فتكون لديها من هذه الاحاديث طبقة عازلة بين غرائزها الثائرة وعزيمتها الماضية. وهذه الطبقة العازلة جعلتها تميز لاول مرة فى حياتها بين ما هو فاضل وما هو فاسد ، بين الخير والشر ، بين الرذيلة والشرف .. وعرفت التردد .. ولم تعد ذلك الحيوان الصحيح البنية الذى لا يعرف الا شهواته ، فينطلق انطلاقا اعمى فى طريق ارضائها ، من غير تفكير فى أى اعتبار اخر ، لانه لم يكن يدرى أن هناك اعتبارا غير اعتبارات الغريزة البهيمية الجامحة !

بهذا الضوء الجديد استطاعت أن تعرف سر هدوء وجه سوزان زوجة اوليفييه ، ومعنى نعومة صوتها ونظراتها الخجول .. وادركت ان المرأة ليست بحاجة الى أن تقتل زوجها كي تنعم بالسعادة والهناء فى الدنيا ...

وعندئذ بدأت تفقد ثقتها بنفسها ، وتخامرها لحظات من التردد والحساب والتشكك فى الطريق الذى اختارته ...

أما لوران ...

لم تكن حاله على وتيرة واحدة ، فهو نهب لعاملين كبيرين.. ولذا كانت تتقاذفه الحمى المتأججة والسكينة ...

وكانت مرحلة السكينة الخالصة هى التى نعم بها فى البداية .. اذ تنفس الصعداء ، وظن انه نفض يديه من حساب هذا الانسان الذى كان عقبة تعترض طريقه . كان حجرا فى سبيل غايته ، وقد رفع ذلك الحجر والقى به فى عرض اليم كي يخلو له الطريق .. وهاهو ذا قد خلا فعلا ..

هكذا توهم فى البداية .. حتى وصل الى مرحلة من التجاهل التام بينه وبين نفسه لما حدث .. ولكن الاحلام اللعينة كانت لا تنفك تتراءى له بين الحين والحين ، فيجلس فى فراشه متعجبا ، ويتساءل هل هو حقا الذى قضى على حياة كاميلوس ؟ وهل هو الذى القاه فعلا فى اللجة بلا رحمة ؟ وهل جثة كاميلوس هى التى كان يترقبها حقا

وهو يذهب كل يوم الى المشرحة العامة ؟

كانت ذكرى جريمته تبدو له غريبة عنه تماما ! .. وكان يأبى أن يصدق فى نفسه انه قادر على قتل انسان ، فضلا عن صديق من أصدقاء الطفولة ، وزميل من زملاء الدراسة ... ويتصبب جبينه عندئذ عرقا باردا غزيرا كلما تذكر أن جريمته كان من الجائز جدا ان تفتضح ، وانه كان من الجائز بالتالى ان يرسل الى المشنقة جزاء وفاقا على فعلته الشنعاء !

وكان يقول لنفسه عندئذ :

ـ عجبا ! كيف امكن ان اقدم على مثل ذلك العمل ؟ لابد أننى كنت سكران .. ! لابد ان تلك المرأة خدرتنى او سحرتنى بمداعباتها ! رباه ! .. اى حمار كان فى جلدى عندئذ ! اى احمق كنت حين جازفت بالموت !

الحمد لله على كل حال أن الامور انتهت بسلام . ولكن لو ان الايام عادت الى الوراء قليلا ، لما أقدمت على تلك الفعلة بأى شكل من الاشكال ...

ثم يستأنف حياته لائذا بالسكينة والبعد عن الشبهات ، مقبلا على النوم والاكل ، حتى زاد وزنه ، وقلت اناقته وعنايته بمظهره .. بحيث لم يكن يخطر لاحد أن هذا العملاق البدين المتراخى الذهن الخلق يمكن ان تبدر منه اية حركة عنيفة .. وناهيك بالعمل !

وعبرت شهور كثيرة ، وهو مثال للموظف المجد فى عمله ، المواظب على مواعيده . كأنه بالطاعة والجد يريد أن يبعد عن نفسه كل سخط .. وخيل اليه فى تلك الفترة ان غرائزه نفسها وصلت من فرط الخمود الى حد الموات الذى لا يرجى بعده بعث .. !

وطبيعى ان تيريزا لم تكن تخطر له ببال فى تلك الفترة من جمود الرغائب وخمول البدن والذهن . واذا تذكرها حين يراها ، فعلى سوال تذكر أى رجل لاية امرأة يضمر فى نفسه ان يتزوجها فى يوم من الايام ، عندما « يصلح الله الاحوال » .. !

وكان معظم تفكيره بمناسبة الزواج ، ليس فى احضان تلك المرأة المشتهاة ، بل فى الرخاء المادى الذى سيتاح له بالاستيلاء على المتجر، بحيث يتقاعد ، وينصرف الى ممارسة الرسم هاويا غير متكسب به ،

ويتجول في الشوارع ، مستمتعا بالشمس والفراغ ‥ وكانت هذه الاحلام هي التي تربطه بمتجر القنطرة الحديدة ، وتسوقه الى هناك في كل ليلة ، وتعينه على الفتور التام ازاء عشيقته السابقة ‥

وذات يوم من أيام الاحد ، وهو يوم العطلة من العمل ، وجد نفسه سأمان ، وليس لديه ما يشغله ‥ فذهب لزيارة زميل دراسته الرسام الشاب الذي طالما شاركه في مرسمه قبل أن يكتشف والده امره . وكان هذا الفنان عاكفا على رسم صورة ينوى أن يرسلها الى معرض يقام قريبا ، وهي صورة غانية عارية تماما ، مستلقية فوق اريكة …

وكانت النموذج امرأة شابة مستلقية في الوضع المطلوب للرسم ‥ وكانت بين الحين والحين تضحك وتتمطى باسطة ذراعيهـــا ، لتستريح من التصلب الذي يصيبها لطول البقاء في وضع واحـــد ، فيهتز صدرها الناضج … وكان لوران جالسا يدخن غليونه ويتحدث الى صاحبه الرسام ، ويرمق النموذج بعينين شرهتين ‥ وظل ملازما صاحبه الى المساء ، ولما انصرفت النموذج لحق بها وصحبها معه الى مسكنه ‥

وظلت هذه الفتاة النموذج تعيش معه زهاء سنة كاملة ، واتخذ منها عشيقة . واحبته الفتاة المسكينة حبا حقيقيا ، لانه في ذوقها يعتبر رجلا وسيما . وكانت تغادره في الصباح ، ليذهب الى عمله في شركة سكة الحديد ، وتذهب هي للقيام بعملها نموذجا للرســوم العارية لدى رسامين مختلفين ، لتعود بانتظام الى حجرته في المساء . وكانت تنفق على غذائها وكسائها وزينتها من المال الذي تكسبه ، ولا تكبد لوران أية نفقة ‥ اما هو فكان لايهتم اطلاقا اين قضت سحابة النهار ، وعند من كانت ، وماذا كان من امرها معه ، ولا كيف حصلت على النقود ‥ فالمهم عنده انها لا تكلفه درهما ، وأنها تعود اليـــه دائما لتقضي الليل معه ‥

وكانت هذه الفتاة عاملا مساعدا على الاستقرار في حياته ، بحيث كاديسى جريمته ، وغرامه السابق . ولم يسأل نفسه اطلاقا هـل هو يحبها حقا ‥ وفي الوقت نفسه لم يخامره أي اعتقاد بأن علاقته بها خيانة لعهد تيريزا ‥ وهكذا ازداد بدانةبمرور الايام وسعادة ‥

وفي تلك الاثناء ، كانت فترة حداد تيريزا قد انقضت ، فارتدت ثيابا من لون فاتح . وذات مساء اكتشف لوران انها استعادت رونق شبابها وجمالها القديم ، بيد أنه لم يزل يشعر بشيء كثير من عدم الارتياح في محضرها . ولم يشأ ان يغامر بسرعة بما هو مستفيد منه حاليا من الاستقرار والبعد عن كل مسئولية او التزام . وأيقن أن زواجه من تيريزا ، أو عودةعلاقته بها ستعنى الاضطراب والمسئولية . وفي الوقت نفسه أيقن ان الوقت حان للتفكير في اخراج مشروع الزواج الى حيز التنفيذ ، وقد انقضى على وفاة كاميلوس ســنة وربع ‥

ووضع موضع الاعتبار احتمال عدم زواجه اطلاقا ، ونفض يده نهائيا من تيريزا ، والاحتفاظ بتلك الفتاة النموذج الى مالا نهاية ‥

ثم قال لنفسه :

ـ ولكنك يا فتى تكون قد قتلت انسانا بغير فائدة ‥ !

أفلست قد قتلت ، وعرضت نفسك للمقصلة كي تحصل على هذه المرأة بالذات ؟ فكيف بعد هذا كله تتخلى عنها كأنك فعلت ما فعلت بلا غرض ؟

والحقيقة أن قتل زميل بالقائه في النهر توصلا للحصـــول على ارملته ، ثم الانتظار اكثر من سنة ، والاكتفاء بمباشرة فتاة حقيرة تتنقل بجسدها العاري من مرسم الى مرسم ، بدا له أمرا غـاية في السخافة وانه في الواقع ملك لتيريزا بموجب وثيقة الجريمــة المشتركة والروح التي ازهقاها معا ‥ ففي استطاعتها اذا ايقنت من عزوفه عن الزواج منها ان تبلغ الشرطة بما كان منه ، فالانتقام يورث الكفر … وكل شيء في شريعة الحب مباح ، «وعلى وعلى اعدائي» !

وفي تلك الاونة بالذات ، تركته الفتاة النموذج الى غير رجعة ‥ خرجت يوم أحد في الصباح ولم تعد ، لانها عثرت على ناد أفضل من حجرته ، وعشيق أيسر منه حالا ‥

ولم يحزن لوران حزنا شديدا ، ولكنه كان قد تعود على أن تشاركه حياته امرأة ، فأحس بفراغ . وعزم على المضي في مشروع زواجـــه من تيريزا ‥ وعاد الى المواظبة كل ليلة على قضاء الامسية في المتجر وصار يتعقب تيريزا بنظرات يشع منها بريق التنمر والرغبة ‥

وذات ليلة ، وهو يساعدها فى اغلاق ابواب المتجر قال لها :
ـ هل آتى الليلة الىٰ حجرتك ؟
فقالت المرأة بخوف شديد :
ـ كلا ! كلا ! يجب أن نلزم جانب الحذر ..
ـ لقد نفد صبرى .. وطال بى الانتظار .. واريدك الآن ..
فنظرت اليه نظرة عربيدة ، واحتقن وجهها وقالت له بعد تردد :
ـ فلنتزوج .. وعندئذ اكون لك كما تشاء ! ..

***

الفصل الثامن عشر

أرق

مارق لوران الممر تلك الليلة وذهنه متبلد ، وجسده متوتر .. فانعاس تريزا الدائنة قد ايقظت فيه كل أشواقه القديمة اليها ، وسلك طريق ارصفة السين ، وقد امسك قبعته فى يده .. كى تتولى كل نسمة تهب من النهر ترطيب وجهه الحار ..

ولما وصل الى شارع القديس فيكتور ، واقترب من باب مسكنه ، تولاه فجاة الخوف من البقاء طول الليل وحده .. وهو نوع من الفزع الصبيانى الذى لا سبيل الى تفسيره ، يداهم الكبار على غير انتظار .. وكان لباب ذلك الفزع انه سيجد عند صعوده رجلا محتبئا فى حجرته !

ولم يكن مثل هذا الفزع مما يراود لوران كثيرا .. ومع هذا لم يحاول طرد ذلك الخاطر الغريب أو مقاومة الرجفة التى استولت عليه ، بل ذهب الى مخزن من المخازن الرخيصة التى تبيع النبيذ والفحم ، وقضى هناك زهاء ساعة وهو يشرب ، الى أن حان منتصف الليل .. وهو جالس بلا حراك الى مائدة فى احد الاركان

وكان فى جلسته الواجمة تلك يفكر فى تيريزا .. ولما افرط فى تجرع الشراب ، بدأ صدره يغلى بالسخط عليها لانها أبت عليه الذهاب الى مخدعها فى تلك الليلة .. وخيل اليه أنه لو كان قضى الليل معها لما انتابه هذا الخوف ..

وبعد منتصف الليل آذنه صاحب مخزن النبيذ باغلاق أبوابه. فانصرف ، ولكنه لم يلبث ان عاد واشترى منه صندوق ثقاب . وكان السلم الصاعد الى حجرته ضيقا ، فى نهاية دهليز طويل مظلم ملتو اشبه بالسرداب الرطب . وكان فى العادة يخترق هذا الظلام

بغير تردد ، ولكنه فى هذه المرة صار يرتعد كالطفل الصغير .. وكان يحدث نفسه بأن القتلة يختبئون له فى بعض زوايا السرداب ، او عند منحنى السلم بين طبقة وطبقة ، أو سيهاجمونه صاعدين من كهف الانيلة فى اسفل البناء ..

ولسوء حظه ان أول عود ثقاب اوقده انطفأ من تلقاء نفسه ، فتسمر فى مكانه وقلبه يدق دقا عنيفا كأنه طبول الحرب ، وبيد مرتعشة راح يشعل اعواد ثقاب اخرى .. وعلى الاضواء الخافتة المتراقصة ، بدت له أعواد حاجز السلالم وكأنها اشباح ضخمة ذات أشكال غريبة ملتوية مخيفة ..

وبشق النفس وصل الى قمة البناء حيث توجد حجرته.. وفتح باب الحجرة بحركة مفاجئة سريعة واغلقه خلفه بالمفتاح والمزلاج ، وانطرح على اربع فوق الارض ليفتش تحت السرير والدولاب والمنضدة ، حتى يتأكد ان الحجرة خالية تماما ..

واحكم اغلاق الكوة المفتوحة فى السقف على غير عادته ، معتقدا ان هذه الكوة منفذ سهل لمن يريد ان ينقض عليه !

ولما فرغ من كل هذه الاحتياطات هدأت أنفاسه قليلا ، وخلع ثيابه ، وبدأ يشعر بالعجب من جبنه المفاجىء . وانتهى الى الابتسام ساخرا من تصرفاته التى لم يجد لها تفسيرا ..

وأوى بعد ذلك الى فراشه .. ولما التف بالاغطية الدافئة ، وسرت الحرارة فى اوصاله .. عاد الى التفكير فى تيريزا ، وكانت مخاوفه العجيبة قد طردتها من ذهنه . واغمض عينيه فى اصرار محاولا النوم ، بيد انه وجد ذهنه يعمل بكل نشاط رغم ارادته .. ويجسم له الفوائد الكثيرة التى سيحصل عليها من التعجيل بالزواج من تيريزا .. وبين الحين والحين كان يقول لنفسه :

— انى على الاقل لن اعود الى التفكير والقلق .. ساكون بمنجاة من الخوف الصبيانى لانى لن أكون وحدى .. والان يجب ان اترك كل هذه الافكار وانام ، لانى ساذهب الى عملى فى الساعة الثامنة ..

وبذل جهودا كبيرة كى ينام ، ولكن افكاره لم تترك له فرصة للراحة .. ولما وجد أنه لايستطيع النوم ، وان الارق يسيطر عليه سيطرة تامة ، انقلب على ظهره ، وفتح عينيه على سعتهما ، وبدأ

يفكر تفكيرا صريحا فى تلك المرأة التى يريد ان يربط حياته بها رباطا أبديا .. وخطر له أن ينهض فيرتدى ثيابه فى هذه الساعة من الفجر، ويتسلل الى ممر القنطرة الجديدة ، ويدق باب مخدعها الحلمى الذى يعرفه جيدا ، وستضطر تيريزا الى ان تفتح له ..

ودفعت هذه التصورات الدماء حارة الى رأسه وعنقه ... واركبها تخيلات وذكريات كثيرة فاجرة، وخيل اليه ان هذه التخيلات حقيقة واقعة ، وان تيريزا ساهرة تنتظره لتفتح له بابها خلسة ، وقد ارتدت قميص نومها الابيض الناصع وهى على احر من الجمر

وهب من فراشه ليحقق ذلك الحلم، فكانت حركته كافية لاطلاعه على مدى وهمه واغراقه فى التصور .. وتذكر الويلات التى مر بها وهو يصعد السلم الى حجرته .. فهل تراه يجازف بالنزول فى الظلام فى هذا الطريق ؟ ..

وكان هذا التساؤل كافيا جدا لرده عن عزمه الطائش ، فالتف باغطيته ورقد مرة أخرى والدماء تتراجع فى عروقه وتهبط الى مستقرها ، وتدغدغ عروقه واعصابه .. وعندئذ احس فى عنقه لدغا شديدا ، فى موضع الجرح الغائر الذى احدثته اسنان كاميلوس . وكان قد اوشك ان ينسى تلك العضة ، فاجزعه ان يجد اثرها على جلد عنقه لايزال باقيا .. وراودته نفسه ان يحكها باظافره عسى ان تزول من موضعها ، فما كاد يلمسها حتى آلمته الما شديدا جدا ، كأنها قطعة من الجمر.. فاسرع يضع كفتيه بين ركبتيه حتى لاتلمسا ذلك الموضع ، واخذ العرق يتصبب من جسمه كله

ان كل افكاره الآن قد تحولت عن مجراها الشهوانى بتأثير هذه العضة الى موضوع واحد هو كاميلوس .. ولم يكن القتيل قد ازعج قاتله قبل تلك الليلة الفريدة .. وكأنما بعث تفكيره فى تيريزا شبح زوجها من لحده ليؤرقه وينغص عليه أوهام لذاته المقبلة ..!

ولم يجسر القاتل على فتح عينيه ، اذ خيل اليه انه لو فعل لوجد شبح فريسته ماثلا امام عينيه.. وتوهم فى لحظة من اللحظات أن الفراش يهتز به .. وخطر له أن كاميلوس لم يغرق ، وانما هو مختبىء تحت الفراش ، وانه يعابثه هذه المعابثة الخبيثة توطئة للانقضاض عليه !..

فانتصب شعر رأسه من الخوف ، وتشبث بالحشية متوهما ان اهتزاز السرير قد ازداد عنفا وقوة !

ولم يلبث إلا قليلا حتى ادرك أن سريره لا يهتز فهب جالسا واوقد شمعته ، وتجرع كوبا من الماء البارد عسى أن يبرد حرارة جوفه ،وقال لنفسه :

ـ لقد اخطأت باحتساء هذا النبيذ ··· وانا لا أدرى ماذا أصابنى فى هذه الليلة · ما أشد بلاهتى ! كان يجب أن أنام نوما عميقا كافيا فى هذه الليلة ، بدلا من التفكير العقيم فى كل هذه الاشياء ·· لابد ان أنام ···

ونفخ شمعته مرة أخرى فاطفاها ، ودفن وجهه فى وسادته ، وقد انتعش قليلا . . وصمم على الا يفكر فى تلك الامور المثيرة مرة أخرى والا يفزع من أشباح وهمية · وكان الاعياء قد نال منه ، فنام نوما مطربا اشبه بسبات الحمى . . ولكن الاحلام لم تدع له فرصة للراحة ، فرأى نفسه يهبط السلم فى الحلم ، ويتجه خلسة الى المدخل الخلفى لبيت « آل راكان » ، ويصعد السلم ويطرق بحجة باب تيريزا ولكن بدلا من ان تفتح له تيريزا فى قميص نومها الناصع · وفى يدها المصباح ·· فتح له الباب « كاميلوس » · ولم يكن كاميلوس الذى يعرفه طول حياته ، بل كاميلوس الذى رآه ذات صباح وراء زجاج المشرحة ، جاحظ العينين ، شائه المظهر ، كالح الابتسام ·· !

كانت جثة كاميلوس الغريق هى التى استقبلته فى فرجة باب مخدع عشيقته الخلفى ، وقد فتح ذراعيه على سعتهما لاحتضانه ، وقد انفرجت أسنانه عن لسان منتفخ غليظ أسود !

واطلق لوران صرخة مروعة ، وصحا من نومه فزعا مرتاعا ·· وقد تفصد جسمه كله بعرق بارد مثلوج !

وجذب الغطاء فوق عينيه ، واستدار وحاول أن ينام مرة اخرى ، واستطاع ان ينام شيئا فشيئا ·· وأصابه الاعياء هذه المرة ايضا ·· وبعد قليل كان فى طريقه ـ وهو يحلم ـ الى مخدع عشيقته التى استولت على أفكاره ·· ومرة أخرى كان زوجها الغريق هو الذى فتح له الباب ، فهب النائم جالسا ، وحمل يجذب شعره ، وهو مستعد للتنازل عن أى شىء فى سبيل تخليصه من هذا الكابوس المزعج ··

إنه طيلة يقظته يستطيع التماسك ، وتشجيع نفسه ، وطرد المخاوف والاشباح ·· أما متى نام، فلا سلطان له على افكاره وأوهامه

وبعد لأى استطاع أن ينام ، ولكنه تعرض للمرة الثالثة للرؤى المرهقة لاعصابه ، فأفاق فى هذه المرة يائسا من حالته ··فهذا الغريق لا يريد أن يفارقه ويدعه ينام فى أمان ··

وظل جالسا فى فراشه يخشى ان يغمض عينيه ، الى ان بدأ الفجر ينبثق ·· فنهض من فراشه وغسل وجهه وارتدى ثيابه فى تثاقل وهو ساخط على نفسه لطراوته وحسه امام اشباح وهمية لا يخافها الا صغار الاطفال . . !

وأسر بينه وبين نفسه على أن ينتزع تيريزا بالامس ، هو السبب فى ثوران حواسه ومخيلته ، وقرر بينه وبين نفسه أن يضع حدا لهذا الكرب حتى لا يتكرر مرة اخرى ··

ـ اما « كاميلوس » فانا لا أباليه حيا ولا ميتا ·· فانا لست جبانا ولو كنت جبانا ما أقدمت على ما اقدمت عليه ·· وقد مضت كل هذه الشهور على الحادث ، ولم يظهر لى مرة واحدة ، ولم اضطرب لذكره يقظان ولا نائما ·· وانما هو توتر أعصابى بسبب الحرمان ··· وتمنع تيريزا ··· قاتلها الله !

ووقف امام المرآة ليعقد رباط عنقه ، وازاح القميص ونظر الى موضع العضة مليا ·· فاذا اثر الاسنان واضح وقد احمر احمرارا شديدا بسبب جيشان عواطفه ·· وكان مجموعة من الابر تعمل على وخزه فى ذلك الموضع بلا رحمة ولا هوادة ·· فاسرع يغطى عنقه ، وقال لنفسه متأففا :

ـ ما هذا الهذيان ! ان زواجى من تيريزا سيشفينى من هذا كله·· ولن افكر فى شىء وهى تؤنس وحدتى وتشاركنى فراشى ·· ولن افكر عندئذ افكارا سخيفة من قبيل وجود جثة كاميلوس تحت فراشى ! هاها !

ولبس قبعته ونزل الى الشارع ، والساعة لم تبلغ بعد الخامسة صباحا. وقضى نهارا مزعجا عانى فيه من توتر اعصابه وتعب جسمه وصداع راسه وزيغ بصره . وغلبه النعاس بعد الظهر وهو فى مكتبه، فلم ينتبه الا على اقتراب خطوات رئيس من الرؤساء ، فنهض مذعورا

.. فاصاف هذا الصراع النهارى عبئا جديدا الى الصراع الليلي

وذهب رغم اعيائه الشديد لزيارة آل راكان ، فوجد تيريزا بادية الاعياء مثله ، محمرة العينين ، كانها تعانى من حمى .. وقالت مدام راكان في رقة بالغة :

ـ مسكينة تيريزا .. قضت ليلة رهيبة بالامس . ويبدو انهـا عانت من الكابوس طول الليل ، فسبب لها ذلك ارقا متقطعا ، فقد سمعت صراخها يشق صمت الليل بضع مرات ..

وبينما العمة تتحدث الى لوران ، كانت تيريزا تثبت نظراتها عليه. ولا بد انها ادركت ماحدث له ايضا في تلك الليلة ، لان التعب كان مرتسما على سحنته كما كان مرتسما على سحنتها . وظلا جالسين يتبادلان النظرات خلسة الى الساعة العاشرة . ويتبادلان من حين لآخر طرفا من حديث عادى لامعنى له ، ولكنه يخفى تحت العاطفـه البريئة تواطؤا وتفاهما ورغبة متبـادلة في تقريب موعد اجتمـاع الشمل ...

والحقيقة ان شبح كاميلوس زار في تلك الليلة تيريزا كمـا زار لوران .. فان طلب لوران اليها في الليلة السابقة ان تفتح له بابها سرا ، قد أثار لديها ، بعد طول الصمت والتباعد ،ما كان خامدا من احساسها . فلما رقدت في فراشها جعلت تفكر في وجوب التعجيل بزواجها من لوران .. ونامت وهى على هذا التفـكير ، فرأت من الاشباح والكابوس ما ازعجها اكثر من مرة . وزاد ايمانها بان اجتماع شملها وشمل لوران هو الذى سيعصمها من هذا القلق والفزع ... لانها لن تنام بمفردها ..

وابتداء من اليوم التالى ، قررت تيريزا ان تعمل على التمهيد للزواج بتصنع الاغماء ، والشرود ، والذبول ، حتى تحمل ضيوف مدام راكان في سهرة الخميس على اقتراح تزويجها ! وممن يقترحون زواجها . ؟ من صديق الاسرة الاعزب لوران بطبيعة الحال ! ..

وكانت تعلم ان هذه المهزلة تحتاج الى مهارة عظيمة في التمثيل والى لباقة عظيمة في الاداء والتاليف والاخراج ..

ولكن المهزلة كانت أسهل مما تظن ، لان الفـريق ظل مصرا على زيارة العاشقين كل ليلة .. مما جعل شحوبها طبيعيـا ، وتوتر

اعصابها وشرودها غير مكلفين . وكذلك كان شحوب لوران وشروده! فقد بلغ من اشتداد الوحشة على اعصابه انه كان يقضى كثيرا من الليالى متجولا في الطرقات ، او مستلقيا في الحـدائق العامة على المقاعد الحجرية تحت ظل الليل القاسى ..

وفي الليالى الباردة ، كان يجلس تحت قناطر السين لعلها تحميه من الهواء والطل والمطر . ولكنه حين يغفو ، كان يرى أحلامه وكوابيسه وأشباحه كما يراها في حجرته سواء بسواء ، فيهب فزعا من نومـه المضطرب ، ويؤثر اليقظة ، ويلعن الايـام ، ويتمنى أن يقترب يوم اجتماع شمله على عشيقته التى دفع أمنه ونومه ثمنـا للتخلص من زوجها ..

وظلا غير متجاسرين على الالتقاء المختلس ، خوفا من العيون التى تحيط بهما ... حتى لا تفسد الخطة .. فكان لابد من الصـبر الى أن يفتح الله على احد الاصدقاء فيفتح الموضوع ، وكأنهما ولا شأن لهما ولا رغبة في الامر .. ويقبلان على سبيل التضحية والرضوخ

الفصل التاسع عشر

حيلة

وفي هذه الاثناء كانت جهود تريزا ولوران الحمية تؤتي ثمارها تدريجيا ، فتيريزا بوجومها وشرودها البائس أزعجت مدام راكان واقلقتها عليها ، واصرت العجوز على أن تعرف ماذا دهى ابنة أخيها .. وعندئذ تكلفت تيريزا الظهور بمظهر الارملة الحزينة بكل براعة ، وشكت من الملل ، والضجر ، ومن آلام عصبية عامـــة ، من غير أن تخصصها بتفاصيل ..

ولما الحت عليها عمتها أن تحدد مواضع الالم ، وأكثرت عليهـا في الاسئلة ، قالت انها في خير صحة وعافية ، وانها لا تدرى بالضبط ماذا يشط روحها هكذا ، حتى إنها تكثر من البكاء من غير ان يكون هناك داع خاص لذلك . وتشفع ذلك برفع منديلها ، واطلاق زفرة حبيسة ، ثم تبتسم ابتسامة تقطع القلب ، وتطرق مفعمـــة وتلوذ بالصمت الواجم ..

وتحيرت العجوز ماذا دهى هذه الشـــابة ، وهى تزداد كل يوم شحوبا ، وتذوى كما يذوى القضيب من الرند ، من غير سبب ظاهر أو علة معلومة .. وكانت لا تنسى في صلاتها كل ليلة أن تتضرع الى الله كي يحفظ لها هذه الابنة المباركة ، ولا يحرمها من آخر صلة لها بالدنيا ، فلو فقدتها لما وجدت من تسبل لها جفنيهـــا حين تجيء ساعتها الاخيرة ..

والواقع ان هذا الحب الشديد من جانب الشيخة كان لا يخلو في لبابه من انانية ، شأنه في ذلك شأن حب الشيوخ جميعا .. فماذا يكون من شأنها لو إنها قضت نحبها وحيدة ، وتمضت حسها في هذا المتجر المظلم الرطب ، فلا يدرى بأمرها أحد ؟ .. ان هذا الخـــاطر

يؤرقها ويشغل بالها ليل نهار ...

واشتغلت في مراقبة احوال بنت أخيها بعـــــد ذلك ، تتعقب اساريرها ، وما يبدو عليها من التنقل بين الوجوم والشرود ، وهى تكد ذهنها لتجد لها مخرجا من هذا الكرب ..

وخطر لها ان خير ما تفعله في هذا الظرف ، هو أن تسأل صديقها الشيخ ميشو الرأى والنصح في هذه المشكلة .. وفي مساء الخميس التالي ، انتحت به ناحية من المتجر وافضت اليه بمخاوفها ، فقـــال الرجل بصراحته المعهودة :

ـ طبعا طبعا .. لابد ! .. لقد لاحظت هذا التغير منـــذ زمن طويل ..

فقالت له مدام راكان بلهفة :

ـ وهل تعرف السبب ؟ تكلم ! تكلم ! ليتنى أعرف طريقة لعلاج حالتها هذه !

فأجابها ميشو ضاحكا :

ـ العلاج سهل .. بل سهل جدا بالطبع ! .. ان بنت اخيـــك تشعر بالضيق والهزال والسأم لانها تضيق بوحدتها في حجرة نومها بالليل ! وقد طال عليها هذا الامر قرابة سنتين .. انها فتاة صحيحة البنية لا تستغنى عن رجل .. وهذا واضح جدا في نظرة عينيها !

وكانت صراحة مفتش الشرطة السابق بمثابة لطمة قوية اصابت مدام راكان ، لانها كانت تحسبـــه ان الجرح الذى يدمى في داخـــل بنت اخيها ويجعلها تذوى بهذا الشكل ، هو من اثر حادث سبان اوان ، وانها حزينة على انها الشاب حزنا لا تريد أن تتعزى منه.. ولم يخطر ببالها ان زوجا آخر يمكن ان يحل محل ابنها بين ذراعى بنت اخيها ، ولـكن ها هو ذا ميشو يلح عليها وهو يضحك ضحكته المريضة ، ويؤكد لها أن مرض تيريزا هو مرض المرأة التى تريد رجلا يؤنس وحشة لياليها ..

ـ زوجيها بأسرع ما تستطيعين ان لم تكونى راغبة في القضـــاء على ما بقى من نضرة شبابها .. هذا هو رأيى ياصديقتى العزيزة ، وثقى انها نصيحة صديق عرك الدنيا وجرب الحياة .. !

وبطبيعة الحال لم تستطع مدام راكان أن تتقبل هذه الفكرة لاول وهلة ، لان مقتضاها ان تسلم بأن ابنها العزيز الاوحد انتهى امره وصار نسيا منسيا .. وادهشها أن ميشو لم يذكر اسم كامليوس على لسانه صراحة ، وانه كان يضحك كانه يمازحها فى مسالة لاتخلو من تعريض بما يكون بين الذكور والاناث !..

وهكذا ادركت المراة المسكينة انها هى الوحيدة التى تحتفظ فى أعماق قلبها حقا بذكرى ابنها الراحل .. واحزنها ذلك حزنا كبيرا فبكت بحرقة ، وزرفت دموعا غزيرة .. فقد شعرت ان كاميلوس مات فى ذلك اليوم للمرة الثانية !

ولما أعياها البكاء وافرغت ما يحجبتها من الدموع، فكرت رغما عنها فى أقوال ميشو ، وأخذت نفسها بتعود تلك الفكرة .. فكرة شراء شىء من السعادة لبنت أخيها مقابل هذا الثمن الفادح الذى كانما هو قتل لابنها مرة اخرى

ولما خلا المتجر فى اليوم التالى الا منها ومن بنت اخيها ، لم تطق صبرا على شرودها وذهولها .. وخارت مقاومتها ، ولاسيما لان مدام راكان ليست من النوع الفظ القاسى الذى يستمرىء الصمت واليأس والضياع ، ولذا كانت فى حالة من الضيق لاتوصف ، وهى ترى بنت أخيها لائذة بالصمت التام ، حتى كانها جالسة بمفردها فى ذلك القبو ، واحست انه تحول الى لحد ...

كل هذه العوامل ساعدت على رضائها بفكرة زواج تيريزا للمرة الثانية ، واعانها ذلك التفكير على تجديد حياتها الراكدة بعض التجديد .. واخذت تكد ذهنها بحثا عن زوج لبنت أخيها ، وهى مسالة جدية للغاية بالنسبة لها ، لان العجوز المسكينة كانت مهتمة فى هذا المجال بنفسها وما يخصها أكثر من اهتمامها المباشر ببنت أخيها !

انها تريد ترويج تيريزا كى توفر لنفسها هى السعادة فى ايامها الاخيرة ، لانها تخشى ان يقلب الزوج الجديد حياة الاسرة راسا على عقب ، ويحرمها من رعاية بنت أخيها التى لا تستغنى عنها فى شيخوختها ، كان يستقل فى معيشته ، أو يرحل الى بلدة اخرى الخ .. الخ ...

م ان مجرد تفكيرها فى أن شخصا غريبا سيدخل فى نطاق حياتها اليومية بحوه الفرصب كان يزعجها جدا ، ويجعلها تتراجع ولا تفاتح بنت اخيها فى امر ذلك الزواج ..

وفى الوقت الذى كانت فيه تيريزا تؤدى ــ بكل النفاق الذى تعلمته من ظروف نشأتها وتربيتها ــ دور الاعياء والذبول والسام وثبوط الهمة ، كان لوران يؤدى دور الصديق الخدوم الوفى العطوف الحريص على انتهاز كل فرصة لاداء الخدمات ــ فهو دائما فى خدمة المرائيى ، ولا سيما مدام راكان التى يغدق عليها دائما عنايتـــه واهتمامه ، وشيئا فشيئا استطاع ان يجعل وجوده فى المتجرعنصرا طبيعيا مالوفا . فلا يكاد يتغيب حتى تفتقده مدام راكان ، لما يدخله عليها من تسلية ، ولما يبادر اليه من الخدمات الصغيرة .. فكانه النافذة التى يدخل منها ضوء الشمس الى المتجر المعتم الرطب..

وقد يحدث أن يتاخر عن موعده فى بعض الليالى ، فاذا مدام راكان تتلفت حولها فى ضيق وقلق ، كانما ينقصـــها شىء من شانه الا ينقصها .. فهى تفزع الآن من فكرة قضاء الامسية وحدها مع تيريزا الصامتة الواجمة كانها تمثال الكآبة والاحزان ..!

ولم يكن لوران يتغيب قليلا الا ليزيد من ثبات مكانته ورسوخها ، وليشعر العجوز بقيمته وفائدته لها .. ثم انتهى الى انه صار يذهب الى المتجر بعد خروجه من مكتبه مباشرة ، ويبقى هناك الى ساعة الاغلاق ، ويتولى بنفسه قضاء الحاجات ، وشراء البضائع من تجار الجملة ، ويحضر لمدام راكان كوب الماء او القص أو اى شىء تحتاج اليه ، لانها تجد صعوبة فى المشى ، وفى الوقت نفســه كان يبدى اهتماما وقلقا نحو حالة تيريزا الصحية ، بصفته صديقا نبيل القلب تدفعه الى ذلك بواعث أخوية !

وفى احيان كثيرة كان يتنحى بمدام راكان ناحية ، ويفضى اليهـا بملاحظاته وقلقه للذبول نضرة وجه المراة الشابة ! ثم يقول لها وهو يهز راسه أسفا وصوته يختلج بالاسى :

ــ اخشى أن نفقدها كما فقدنا العزيز كاميلوس .. ولا فائدة من ادعاء العكس ، لا فائدة من تجاهل مرضها الغامض .. وا أسفاه على امسياتنا اللطيفة الانيسة حين يحطمها منا الموت !

وكانت مدام راكان تصغى لما يقوله لها في جزع شديد ، فيستطرد قائلا :

ــ وا أسفاه ياسيدتي ! يبدو انه لا مفر لنا من هذا الرزء الفادح .. فها قد بات كاميلوس العزيز منذ زهاء سنتين ، وهي لا تريد أن تتعزى عن فقده .. لا حيلة لنا اذن الا التسليم والاذعان وترويض النفس على فكرة فقدها ...

وكانت هذه الاكاذيب تنطلي على العجوز طيبة القلب ، فتبكي بدموع غزار ، حتى لاتكاد تبصر مالمأمها لتجدد حزنها بهذا الحديث على وحيدها .. فكلما ذكر امامها اسم كاميلوس انفجرت باكية ، وكان لوران يعرف تمام المعرفة تاثير ذلك الاسم ، وانها كثيرا ما طوقته بذراعيها وهي تبكي امتنانا لذكره اسم ابنها على لسانه ، آية على انه لم يزل يحفظ له ذكرى في قلبه ، ولم ينسه كما نسيته الدنيا كلها .. فصار يتسلى بابكائها كلما اراد ذلك ، ويتلذذ بممارسة تلك السلطة العجيبة على دموع العجوز وافكارها .. ثم ياخذ في التربيت عليها وتعزيتها !

وذات مساء من امسيات الخميس المعهودة ، كان ميشو وجريفيه قد وصلا واستقرا في حجرة المائدة مع الاسرة ، عندما حضر لوران متاخرا .. واتجه مباشرة نحو تيريزا وسالها برقة مهذبة واهتمام ودي عن صحتها ، وجلس بجوارها بعض الوقت ، وادى على احسن وجه دور الصديق المخلص القلق !

وكان لصورة هذين الشابين المتجاورين ، وهما يتبادلان الحديث الرقيق والسؤال عن الصحة تاثيرها في ميشو ، فمال على اذن صاحبته العجوز مدام راكان ، وقال لها همسا ولكن بحماسة :

ــ هاك يا صديقتي الزوج الذي تريدينه لبنت اخيك ...

وما عليك الا ان تعدي العدة لذلك الزواج باسرع وقت ، وسنساعدك على نجاح مسعاك عند اللزوم ...

وابتسم ميشو ابتسامة مريضة ، اخفى بها خواطر اخرى ... فقد كان يقدر أن تيريزا بحاجة الى شاب فتي قوي البنية ، وكان يتصور ما يحدثه زوج عملاق قوي كالثور من التغيير الكبير في حالتها واقبالها على الدنيا بعد هذا الاعراض الشديد ...

واما مدام راكان ، فكانما هبط عليها هذا الاقتراح هبوط الوحي والالهام .. فادركت على الفور جميع المزايا التي يعينها عليها هذا الزواج بين تيريزا ولوران ، فهو الصديق الطيب الذي يحفظ ذكرى ابنها ، وهو الخدوم المحب لها ، الذي يالف المتجر ويحب حياتهما الهادئة ، وهي موقنة ان شيئا لن يتغير في حياتها بزواجه من بنت اخيها .. فكل ما هناك انه سوف لا ينصرف عند اغلاق ابواب المتجر ، بل يصعد معهما الى الطابق العلوي ، وستضمن بذلك استمرار خدماته ورعايته لها .. وهو الذي كان من الممكن ان يتزوج فتاة اخرى تقطعه عن الحضور الى متجر لايربطه به الا الوفاء والمجاملة ...

وسرها ان تضمن مستقبلها وسعادة ايام شيخوختها بذلك الزواج ، وتقفل الابواب وتقطع السبيل على اسباب القلق .. بل وخيل اليها ان زواج تيريزا من لوران لن يكون خيانة تامة لذكرى كاميلوس .. لانه صديقه ، ولانه لن يغار من ذكرى ابنها الراحل ، كما كان حريا ان يغار منها اى زوج سواه ...

وطيلة سهرة تلك الليلة ، واثناء لعب الدومينو ، لم تحول مدام راكان عينيها عن الشابين اللذين جلسا متجاورين .. ترمقهما بحنان ، وهي تشكر المولى القدير على هذا الالهام الموفق الذي نزل على صديقها ميشو الحصيف !

ولم تخف هذه النظرات على العاشقين ، فادركا ان التمثيلية التي حبكا ادوارها واخرجاها معا ، آذنت ان تؤتي اكلها جنيا شهيا وان الفصل الختامي منها سترتفع عنه الستار قريبا ...

وقبيل الانصراف في ختام السهرة ، تبادل ميشو مع مدام راكان حديثا قصيرا على حدة .. ثم تابط ذراع لوران ، وقال له :

ــ اريد ان اتمشى معك قليلا في طريقنا الى البيت الليلة ..

فقد تكفل ميشو لصديقته العجوز مدام راكان بجس نبض لوران ، ووجد لديه ــ كما هو منتظر ــ كل اخلاص وولاء للسيدتين الحزينتين ، ولكنه ابدى دهشة تامة عند سماع اقتراح ميشو عليه أن يتزوج تيريزا ، وقال بصوت يفيض تاثرا وتحرجا :

ــ اني احب ارملة صديقي الراحل حب الاخ لاخته .. واعتقد

انه من الخيانة لذكرى صديقى ان افكر فى الزواج منها !! ..

والح مفتش الشرطة المتقاعد على الشاب ان يقدم على هذه « التضحية » رعاية للعجوز ، وانقاذا لصحة الارملة المحزونة !

— ثم لاتنس أن من واجبك يا لوران نحو هذه السيدة التى تحبك حب الام ان ترد اليها فى « شخصك » ابنها الذى ترك فراغا فى البيت ، وان ترد على تيريزا الزوج الذى يوشك خلو مكانه ان يورثها حتفها !

وشيئا فشيئا ، وبصعوبة ، سمح لوران لمفتش الشرطة ان يقنعه بوجهة نظره ، وصرح له اخيرا بالقبول ، وعندئذ راح الشيخ يعرك يديه سرورا ، وهو يهنىء نفسه على هذا النصر الذى احرزه فى المناورة والمفاوضة !

وفى هذا الوقت بعينه ، كانت مدام راكان تتحدث البيت الى بنت اخيها حديثا مماثلا .. وادت تيريزا دورها باتقان ، فاحتجت على عمتها لتفكيرها فى شىء من هذا القبيل ، وابدت عزمها على البقاء وفية حتى النهاية لذكرى كاميلوس ، وانها لن تسمح لاى انسان ان يحتل مكانه فى حياتها وفراشها ..!

وراحت مدام راكان تطرى محاسن لوران ، وتبين لها مزايا زواجها منه .. وانها شخصيا تريد هذا الزواج ، لانه سيريحها فى ايامها الاخيرة ، ويبدد شيئا من أحزانها القاتمة .. فقالت تيريزا بأناة :

— انى احب لوران حبا اخويا .. ولكن ما دمت مصرة على هذا التوجيه ، فساحاول ان احبه حب الازواج .. من اجلك انت ! لانى أريد ياعمتى ان اسعدك وادخل على قلبك بعض التعزية !

وعندما أوت مدام راكان الى فراشها فى تلك الليلة ، بكت طويلا .. وفى الصباح حضر ميشو الى المتجر ، وابلغها نجاحه فى مسعاه ، وتبادلا الانباء والتفاصيل عن « لجنتى المفاوضات » وما جرى فيهما ، وقررا أن خير البر عاجله .. ولذا ستعلن الخطبة فى مساء ذلك اليوم نفسه

وعلى عجل ، اقيمت حفلة شاى بسيطة فى المساء ، وتم اعلان النبأ على الاصدقاء ، وبكى الصديق الوفى « لوران » وهو يقبل مدام

راكان ويناديها : « يا أمى العزيزة » ... فانفجرت باكية بحرقة ، لان اذنيها تلقت هذا النداء لاول مرة منذ وفاة ابنها العزيز كاميلوس

واهاب به ميشو ان يقبل عروسه .. وعلى استحياء وفى تردد ظاهر ، تناولت مدام راكان يد بنت اخيها ، ووضعتها فى يد لوران وهى لا تقدر على الكلام ، فلما تلامست بشرتهما سرت فى جسدى العاشقين قشعريرة ، وضغطت يده على يدها التى تكاد تشتعل من شدة الحرارة ضغطا عصبيا .. وبصوت مختلج سألها لوران :

— خبرينى يا تيريزا ... هل أنت راغبة حقا فى أن تساونينى على تحقيق السعادة وادخال السرور على قلب عمتك ؟

فقالت بصوت حبيس ، وهى مغضية ببصرها الى الارض

— نعم ... فهذا هو واجبنا نحوها ...

فالتفت لوران نحو مدام راكان ، وقال بثبات عجيب :

— عندما سقط المسكين كاميلوس فى الماء ، صرخ قائلا :

« انقذ زوجتى .. انى أعهد اليك بها .... » ولذا اعتقد انى اذ أتزوج تيريزا انما أنفذ رغبته الاخيرة ووصيته المقدسة !

وعندما سمعت تيريزا هذا الادعاء الفاجر ، احست كأن طعنة اصابت قلبها ، فأفلتت يدها من يده مضطربة ، وقالت مدام راكان وصوتها تخنقه العبرات :

— قبلها ... تبادلا قبلة .. فتتم خطبتكما على بركة الله !

وشعر الفتى بعدم ارتياح عجيب له حين لامست شفتاه صفحة خد المرأة .. وتراجعت تيريزا مجفلة كأن شفتيه قطعتان من الحديد المحمى .. فهى اول مرة يقبلها فيها هذا الرجل أمام الناس ، وصعد كل دمها الى وجهها حتى كادت وجنتاها تحترقان !

وهى التى لم تعرف الحياء والخجل فى اتصالها بهذا الرجل عينه ، وخلعت معه منذ اول لمسة كل عذار ..

وحين انتهت هذه الازمة ، تنفس القاتلان الصعداء .. فها هو ذا زواجهما قد تقرر ، وهاهما ذان قد وصلا أخيرا الى الغاية التى طال مسعاهما اليها .. وتم الاتفاق على جميع الخطوات الليلة عينها

وظل مسلك تيريزا ولوران رزينا وقورا ، رغم النكات والمزاح

المكشوف نوعا الذى تبرع به كل من جريفيه وميشو لتنشيط الجو وتبديد جو الكآبة ، وبدا من العروسين بوضوح انهما يؤديان واجبا قاسيا لا اكثر .. فكانت مدام راكان ترمقهما بنظرات الامتنان !

وكان على لوران أن يستكمل بعض الشكليات ، واولها ان يكتب بعد القطيعة الطويلة خطابا الى ابيه يستأذنه فى الزواج ، وكان المزارع العجوز قد نسى تقريبا ان له ابنا فى باريس ، فرد بخشونة قائلا :

— لا شأن لى بك .. وفى وسعك ان تتزوج من تشاء ، اوتشنق نفسك ان اردت .. فالامر عندى سيان ، والمهم ان تعقه حقيقة واحدة مؤكدة .. انك لن تظفر منى بدرهم واحد !

واحزن لوران هذا الخطاب ، لانه ايذان بان والده ينوى ان يحرمه من ميراثه ، ولما اطلع مدام راكان على رسالة ابيه القاسية ، استاءت جداً من ذلك الوالد ، وراحت تبذل جهدها فى تعويض الشاب خيرا عن بخل ابيه وسخطه

وفى اندفاعها العاطفى ، اقدمت العجوز على عمل اخرق .. امهرت بنت أخيها بمتجر الخردوات .. نقلته الى اسم تيريزا وجعلته بائنتها فى الزواج ، وكذلك نقلت الى اسمها راس مالها المدخر المستثمر فى سندات حكومية ، وهو يزيد عن أربعين الف فرنك ذهبا ...

وهكذا جردت العجوز نفسها من كل الممتلكات الدنيوية ، وقدمتها وهى لا تدرى الى قاتلى وحيدها .. وتركت نفسها تحت رحمتهما بالكلية

واظهر لوران بوضوح انه لاينوى الاستمرار طويلا فى العمل مستخدما ، وانه سيستغل هذه البائنة الكبيرة فى الانصراف الى هواية الرسم ومحاولة الاشتهار فى ميدان الفن ..

وتعجلت مدام راكان معدات الزواج .. وبدا كان كل انسان فى ذلك المحيط الضيق يبذل قصارى جهده لدفع تيريزا الى احضان لوران ...

واخيرا حل اليوم الموعود ...

القران

وفى ذلك الصباح استيقظ لوران وتيريزا ، كلٌ منهما فى حجرة نومه الخاصة ، وهما يشعران بالسرور .. وان الليلة الاخيرة من ليالى الخوف والارق والرعب قد انقضت ، فلن ينام كلٌ منهما على حدة بعد اليوم .. وسيحميان نفسيهما من غوائل الرجل الغريق معا ...

ونظرت تيريزا فيما حولها ، وابتسمت ابتسامة غريبة ، وهى تقيس بعينيها حجم فراشها الكبير ... ثم ارتدت ثيابها على مهل، فى انتظار قدوم سوزان التى كان من المتفق عليه ان تأتى لتعدها للعرس ..

وجلس لوران فى الفراش .. وبقى فى ذلك الوضع بضع دقائق ، كانما يودع حجرته الضيقة العتيقة ذات السقف المنحدر التى ضاق بها وكره الاقامة فيها ، وها هو ذا اخيرا يودع ذلك الجحر ، ليتحد لنفسه امراة يقترن بها ولا تفارقه ..

وكان ذلك اليوم فى شهر ديسمبر .. والجو بارد ، فكان لوران يرتعد ، بيد انه اكد لنفسه فى اطمئنان وهو يثب من فراشه أنه سينعم بالدفء منذ الليلة !

ومنذ اسبوع .. قدرت مدام راكان انه لا يملك مالا يساعده على مقتضيات العرس ، فدست فى يده كيسا به خمسمائة فرنك ذهبا ، هى كل مدخراتها النقدية ، وتقبلها الشاب من غير مماحكة او تظاهر بالتمنع والاباء ، واشترى لنفسه على الفور كسوة جديدة أنيقة ، ومكنته هبة العجوز ايضا من تقديم هدايا العرس المعتادة الى عروسه تريزا ، حسب التقاليد

وكانت الملابس الجديدة موزعة على كرسيين .. واغتسل لوران وتعطر ، ودمك جسمه بقارورة من ماء الكولونيا ، ثم شرع في التزين بعناية فائقة ، لانه كان يروم أن يبدو وسيما أنيقا في كل عين تقع عليه ..

وعندما آن له أن يثبت اليـــــاقة ـ وكانت من النوع الصلب المرتفع ـ شعر بوخزة الم في جانب عنقه ، وسقط منه زر الياقة المذهب ، وضاق صدره ونفد صبره .. وخيل اليه ان السبـــج المنشي يحز رقبته ، ويكاد يقطع فيها قطعا ، ودفعه الالم الى اكتشـــاف مدى الضرر الذي آده أن يحتمله ، فرفع ذقنه ، وبدا له اثر عضـــة كاميلوس وقد اصطبغ بالحمرة القانية ، لان الياقة المنشاة احتكت بالندبة احتكاكا يسيرا

وعض لوران شفته ، وشحب لونه .. فان منظر تلك النـــدبة وهي ملطخة باللون الاحمر بين قان وقاتم ، تتخلله النقط السوداء ، قد أثار في تلك اللحظة أعصابه ، فاذا به يقبض راحة يده على الياقة الصلبة فيكســر استواء نسـجها .. ثم اختار ياقة اخرى من مجموعة الياقات التي اشتراها وشرع يرتديها بعناية وحذر ..

واخيرا انتهى من ارتداء ثيابه .. واخذ يهبط الدرج وثيـــابه الجديدة تكاد تشعره أنه مصلوب بداخلها ، بحيث لم يتجـــاسر على الالتفات يمنة أو يسرة ، ورقبته حبيســة في القالب المنشى الابيض اللون ، وفي كل حركة تصدر منه ، أو خطوة من خطواته ، أو هزة من ساعديه ، كان يترك اثرا او كسرة في ثيابه ، اما حركات راسه او التفاتات وجهه فهي قمينة ان تثير الموضع الذي غرس فيه الغريق أسنانه .. وهو شعور غير مناسب في الوقت الذي يخطو فيه نحو الاعراس بحليلة ذلك الغريق !

وما أن التقى في طريقه بعربة اجرة حتى استقلها لتوصله الى « ممر القنطرة الجديدة » ، كي ياخذ تيريزا من هنـــاك الى مبنى البلدية ، ثم الى الكنيسـة لاتمام مراسم العقد المدنية والكنسية ..

وفي الطريق ، توقف مرتين ليصـــحب معـــه الشـيخ ميشو ، وزميلا له في شركة سكة حديد أورليان .. فهما شاهداه ، ولمـــا وصلوا الى المتجر وجدوا كل شيء على اتم أهبة .. فثمة اوليفييه

وجريفيه ، وهما شاهدا تيريزا ، ومعهما سوزان التي جعلت تتطلع الى تيريزا بنظرات الطفلة الى دميتها التي فرغت لتوها من تزيينها والباسها أثوابها الجديدة !

ومع ان العجوز المسكينة مدام راكان لم تبق في ساقيها قدرة على المشي تقريبا ، الا انها اصرت على ان تصحب « طفليها » في يوم عرسهما حيثما يذهبان .. فحملها اصحابها حملا الى عربة أجرة اخرى مع سوزان وأوليفييه وجريفيه ، وانطلقت العربتان ، واكثر الجميع خفقان قلب هي تلك العجوز التي امتزج في فؤادها الحزن الموجع ، والتذكر المؤسي ، وتجدد الحياة والسخاء والانانية !

وجرى كل شيء في امنته على ما كان منتظرا ، سـواء في مبنى البلدية او في الكنيسـة ، ولوحظ على العروسين هدوؤهما التـام وحياؤهما ، فكان ذلك موضع استحســان من الجميع ، ولم يدر احد اي شعور محموم ثائر كان يغلي في صـــدريهما ، وهما يركعان في الكنيسة أمام المحراب جنبـــا الى جنب .. اوعندما نطقا بكلمـــة « نعم » جوابا على السؤال التقليدي :

ـ أترضينه زوجا ؟ أترضاها زوجة ؟

ولكنهما كانا يتحاشيان التقاء النظرات .. ولما عادا الى العربة ، خامرهما احساس غريب مؤداه ان كلا منهما صار أكثر غربة بالنســبة لصاحبه من ذي قبل .. فكان هذا « الرباط المقدس » العلني قد باعد ما بينهما ، بدلا من أن يفيدهما زيادة في القربى !

وكان قد تقرر أن يكون « عشاء الزفاف » مادبة عائلية في أضيق الحدود ، واتفقوا على ان تتم في مطعم صغير في ضاحية « بتلفيل » وعلى الا يكون ثمة مدعوون سوى ميشو وولده أوليفييه وزوجته سوزان وجريفيه ، ولما كان الموعد هو الساعة السادسة ، فقــد انطلقت العربتان تذرعان بالعروسين والضيوف منازه باريس ، وفي الوقت المناسب توجه الجميـع الى المطعـم ، حيث كانت المـائدة المحجوزة لسـبعة اشخاص في انتظارهم ، داخل مقصورة خاصـــة مطلية باللون الاصفر ..

ولم تكن المادبة بالغة اقصى غايات البهجة ، لان العروسين كانا في منتهى الجد والاطراق والتفكر .. فهما يعانيان منذ الصبـــاح

الباكر مشاعر غريبة مختلطة ، لم يجدا من هدوء البال ما يعينهما
على تحليلها وتأويلها .. ثم جاءت هـــذه « التشكيلات » السريعة
المتلاحقة اليسيرة الفارغة فزادت من حيرتهما الشـــديدة .. أمن
أجل هذه التوافه تعذبا كل هذا العذاب ؟ أهذه التشكيلات وحدها
هي التي تحملهما في نظر الله والناس بريئين من كل اثم ، وصاحبي
حق لايماري فيه انسان !؟

وعلى المائدة اجلسوهما متقابلين .. فحاول كل منهمـــا أن يكتم
احساسه المتميع بأن يلقى الى صاحبه ابتسامات وجلة .. كانت
تنتهي دائما الى الغرق في بحر من الشرود مرة أخرى ..

عجبا ! انهما زوجان الآن .. ومع هذا لم يشعرا بأي تغير طرأ
على حالتهما .. ففي أعماق احساسهما كانت هناك هوة عميقة لم
تزل فاصلا بينهما ، وانهما ليتساءلان كيف ترى يمكنهما اجتيازها ؟
انه ليخيل اليهما انهما بعد ، في الفترة التي تلت جريمة القتـــــل
مباشرة ، عندما كانت العقبات المادية تعترض ارتباطهمـــا العلني
السافر .. لم يتذكران ان معنى مراسم هذا النهار انه يجوز لهما
الآن .. بل ينبغي عليهما ـ أن يأويا الى فراش واحد منذ هـــذه
الليلة بالذات ، وان الناس يرحبون بكل دلائل هذه المعاشرة وثمراتها
الطبيعية .. ومع هذا لم يجدا لديهما صدى للاحساس بالارتباط
بل خيل اليهما ان يدا عنيفة فرقت كلا منهما من الآخر ..

وتأويل ذلك الاحساس الغريب سهل المأتى .. فطول انتظارهما
هذه القربى زهاء عامين ، قد أخمد ما كان زاكيا من جذوة رغبتهما ،
فأتى ذلك على ماضي استعارها ، وتحول الفحم المتقـد الى رماد
لا تشب فيه النار ..

وها هما الآن ولا أثر فيهما لما استشعراه عند يقظة الصباح من
بهجة مأمولة واستبشار بما يحمله الليل اليهما من طمأنينة وسكون
نفس طال بهما عذاب جائشها .. ها هما وقد جلسا يخيم عليهما
صمت ولا سكينة ، وترتسم على شفاههما ابتسامة ولا بهجة ..
لا يتطلعان الى أمل مشرق ، ولا يساورهما استبشار المقبلين على
صفحة في العيش جديدة تتسم بالطرافة ..

ولوران على الخصوص ، كلما التفت برأسه يمنة أو يسرة شعر

بوخزة ألم في رقبته ، في موضع عضة كاميلوس .. فتسري من ذلك
الموضع قشعريرة في بدنه كله ، من قمة الرأس الى اخمص القدم ،
ويخيل اليه ان أسنان الغريق ناشبة في لحمه بعد ، لا تريد أن تفلت
رقبته ، وان سلسالا من الدم الجاف يحيط بعنقه وصدره وكتفـــه
مرة بعد مرة ، ويكاد ينقلب احبالا تكبله وتصبغ صـــداره الابيض
الجديد بلون أحمر قان ..

ولكن مدام راكان لم تكن تدرى من ذلك شيئا .. فهي شاكرة
لهذين العروسين الشابين رزانتهما المناسبة للحـــداد على وحيدها
الراحل ، فأي ابداء للسرور من جانبهما كان حريا أن يجرح شعور
الام الثاكلة جرحا غائرا .. فهي تكاد ترى رأي العين وهي جالسة
شخص ابنها الراحل ، قائما على رأس المائدة بجوارها ، ليمنـــح
بنفسه يد تريزا الى لوران ، ويعهد برعايته اليه باعتباره صديقه
الاوفى !

وأما جريفيه فلم يخطر بباله شيء من ذلك .. وانما هو عنـــده
عرس مثل سائر الاعراس ، وما هكذا الاعراس ! فلا بد من اشاعة
المرح والدعابة .. ولم يثنه عن ذلك ما تلقاه من نظرات اللوم والزجر
من ميشو وولده اوليفييه ، كلما نهض ليلقي نكتة غير محتشمة ..

وقال جريفيه فيما قال :

ـ لنشرب نخب الذرية الصالحة لعروسينا الشابين ..

فكان لابد من شرب ذلك النخب .. وتبادل العروســـان نظرة
انجفال وقلق ، ووجههما شاحب ، فما خطر لهما من قبل أن سيكون
لهما البنون والبنات من هـــذا الزواج ، واحدث هذا الخاطر في
بدنهما قشعريرة ..

وانتهى العشاء في وقت مبكر .. وأصر الضيوف على مرافقـــة
الزوجين الى خدر العرس ، ولم تكن الساعة تجاوزت منتصف العاشرة
عندما وصل الركب الميمون الى « ممر القنطرة الجديدة »

وكانت المرأة التي تبيع الحلى المقلدة ، لم تزل جالسة خلف دولاب
سلعها ، فرفعت رأسها ونظرت باستطلاع الى العروسين ، وابتسمت
ابتسامة غامضة .. ولكنها ابتسامة اشاعت الوجل والانقباض في
نفسيهما .. فلعل هذه العجوز كانت قد فطنت الى تسللات لوران

فيما مضى الى مخدع تيريزا ، فى خلسة من وقابة مدام راكان بعد الظهر او صدر الضحى ...

واستحبت تيريزا على الفور الى خدرها ، ومعها مدام راكان وسوزان ، وبقى الرجال فى حجرة المائدة ريثما تتم اهبة العروس للجلوة ... وشرع الضيوف يسلقون العريس الضيق الصدر بالنكات الحريفة ، الى آن برزت سوزان ومدام راكان من مخدع تيريزا ، وقالت العجوز بصوت متحشرج للوران :

— زوجتك فى انتظارك يابنى ..

فاوتج عليه ولم يدر ماذا يقول ، وسمر فى مكانه .. ولما رآها تبسط اليه يديها تناولهما مرتجفا ، وشد عليهما ، ثم دخل حجرة تيريزا وهو يتحسس الباب بيده ويتحامل عليه ، كالسكران ...

الباب الآخر

وبعناية اغلق لوران الباب خلفه ، ووقف معتمدا بظهره اليه من الداخل برهة ، يدير عينيه فى الحجرة ، وقد بدا عليه القلق والضيق

وكانت المدفأة عامرة بالسنة من النيران المتراقصة ، ترسل اضواء صفراء وحمراء على الاثاث ، واغطية الفراش البيضاء ، وايضا على وجه تيريزا الشاحب . ولفرط حرص مدام راكان على اكرام العروسين عنيت بتعطير هذا العش ونظافته واناقته ، واحاطت الفراش الكبير ذى الاعمدة الاربعة بشرائط ملونة لامعة المعروض انها تدخل البهجة على النفس .. ووضعت على المدفأة الوانا مختلفة من الازهار والرياحين ، كان اريجها يملأ الخياشيم ، ويختلط بالعطر الفواح الذى ضمخت به اغطية الفراش ، وقميص نوم العروس ..

وكانت تيريزا جالسة فوق مقعد منخفض عن يمين المدفأة ، وقد اعتمدت بذقنها على يدها ، وراحت تحدق فى السنة اللهب المتماوجة . ولم ترفع اليه طرفها حين دخل عليها ، ووقع بصره على شعرها المنسدل على كتفها العارى ، وقد سرت فيه حمرة الدفء

وتقدم لوران خطوتين نحوها من غير ان يتكلم .. وشرع يخلع سترته وصداره الابيض ، وعندما صار فى قميصه الابيض المنشى ، نظر نحو تيريزا مرة اخرى ولكنها لم تتحرك .. وبدا عليه التردد ، ثم فطن الى كتفها العارى ، فانحنى وهو يرتجف ليطبع على تلك البقعة الدافئة من بدنها قبلة ، واذا بالمرأة تتباعد عنه وتنأى بكتفها كالمزورة .. والقت على لوران نظرة اشمئزاز ووجل ، فتراجع مضطربا ، كمن سرت اليه عدوى النفور والفزع

وجلس لوران فى مواجهة تيريزا ، فى الجانب الآخر من المدفأة

وظلا صامتين ساكنين فى موضعهما زهاء خمس دقائق طويلة ، وكانت الاخشاب المشتعلة تطلق شررا وطقطقة بين الحين والحين ، فيضفى ذلك موجات من الاضواء على وجهى القاتلين !

لقد مرت قرابة عامين منذ آخر مرة اختلى فيها هذان العاشقان فى هذه الحجرة بالذات ، خلسة من أعين الرقباء ، تحت ستار الصحى ، ولم يكن بينهما لقاء خلوة منذ تلك الزيارة التى اقدمت عليها تيريزا لمسكن لوران ، حيث اوحت اليه بفكرة اغتيال كاميلوس ..

انهما قد تباعدا عمدا منذ تم ذلك الاغتيال ، ادخارا لعواطفهما الى ليلة العرس ، وها هى ذى ليلة العرس .. وكل شيء مهيا ، والفراش مفتوح الذراعين لاستقبالهما .. وهما جالسان هكذا وجها لوجه ، لا يجسران على الملامسة ، وكأن فى ذراعيهما شللا يعوقهما من العناق المشبوب الذى لا يعوقه شيء ... ويكاد يزكيه كل شيء ..

ان عيونهما تتلاقى بنظرات لا تحمل معانى الاشتهاء ... نظرات فاسدة .. ولذا أخذا ينقبان فى اعماقهما تنقيبا يائسا عن بقايا لم تنطفىء من جذوتهما تحت الرماد .. حتى لقد خيل اليهما لفرط خورهما ووهنهما ان جسديهما قد خويا من الاعصاب والعضلات.. وتمنيا لو ان لديهما القوى لهصر جسديهما فى عناق يحرقهما ويحطمهما ، حتى لايكونا هزاة فى عيون الناس ، بل وفى نظر نفسيهما ايضا ..!

أمن أجل هذا السكون السخيف والشوط فى الهمة ، جريا كل ذلك الشوط البعيد ، واقترفا جريمة القتل ، ولم يتحرجا من كل مائمة ؟ !

وحاول لوران أن يتحدث عن الحب .. وان يستعيد الى الذاكرة صورا من حياتهما الماضية فى تلك الحجرة بالذات ...

— تيريزا .. اتذكرين ساعات لقائنا بعد الظهر فى هذه الحجرة ؟ كان من عادتى أن اتسلل من هذا الباب .. الم يلفت نظرك أننى الليلة دخلت هذه الحجرة لاول مرة من الباب الآخر ؟.. ومعنى هذا اننا حران طليقان .. وفى وسعنا ومن حقنا ان ننعم بالحب والامن بلا وجل ...

وبرغم مجهوده ، جاء صوته حادا متسلخا .. وكانت المرأة تصغى لما يقول ، وهى تنظر اليه شاردة النظرات ، فاستطرد لوران:

— اتذكرين ؟.. كنت كثيرا ما احلم واتمنى ان اقضى معك ليلة كاملة ، من مبتداها الى مطلع النهار .. واستيقظ على حرارة قبلاتك واريج انفاسك .. واليوم آن لى ان احقق هذا الحلم !...

وبدرت من تيريزا حركة سريعة .. كانما صوته ادهشها ، ونظرت اليه فى توجس وهى ترتعد .. فقال بتلهف :

— فيم الخوف ؟ فيم التردد ؟.. ان المستقبل صار خالصا لنا.. لقد تغلبنا على كل عقبة ليصفو لنا الزمن ونعيش آمنين على حبنا.. وذهب كاميلوس الى غير رجعة ..

فكانما مس جسد تيريزا تيار كهربى ، بذكر هذا الاسم على لسانه فى هذه الخلوة .. بل كانما كان هذا الاسم كلمة السر التى اطلقت الجنى من القمقم .. فاذا شبح المقتول وقد انتصب بينهما ، فى ضوء النيران الصفراء المتراقصة اللهب ، وجف ريقهما ، وتبادلا نظرات خوف ، من غير ان ينطقا بكلمة واحدة ..

وثقلت هذه الوطاة على اعصاب القاتل ، فنهض قائما ، وراح يذرع الحجرة ويداه خلف ظهره .. ثم خلع حذاءه فى عصبية ، وارتدى الخف الجديد الذى اشترته له ام كاميلوس .. ثم حاول ان يصل ما انقطع من الحديث بينه وبين عروسه ، متخيرا فى هذه المرة تفاهات عادية مما يتحدث فيه الغرباء والضيوف ..

وكانت تيريزا مدركة مراده كل الادراك .. واجتهدت ان تجاذبه اطراف حديثه ، وتجيب عن اسئلته .. فراحا يتكلمان فى كل موضوع مطروق ، ليتجاهلا حالهما من الارتباك والنفرة ، ثم قال لوران :

— ما اشد الحرارة فى هذه الحجرة !

— اجل .. ولكن البرد فى الخارج شديد .. وانى لاحس له زمهريرا فيما ينفذ من تحت الباب الخلفى ..

والتفت الاثنان الى ذلك الباب فى وجل .. فهو الباب الذى يفضى الى الزقاق ، وكان لوران يسلكه فى تسلله فيما مضى .. ثم ساد بينهما الصمت فترة طويلة ، كانما شبح كاميلوس قد نفذ من تحت الباب الآخر مع هواء الليل البارد .. وبعد قليل ، قالت تيريزا

من غير ان تذكر اسمه :

ــ هل رأيته في ذلك اليوم في المشرحة ؟..

وكأنه كان يتوقع ذلك السؤال ، فقد هز رأسه وبلع ريقه وقال :

ــ نعم ...

وبعد فترة صمت أخرى ، جاءه سؤالها التالي :

ــ وهل كان يبدو عليه انه عانى كثيرا ؟..

ولم يجبها لوران .. واشاح بيده كأنه يطرد ذلك الخاطـــر المزعج ، ونهض فسار اليها مفتوح الذراعين ليحتضنها ، ومد اليها عنقه قائلا :

ــ قبليني ...

فنهضت تيريزا وتباعدت عنه ، فاحمر وجهه وقال بحدة :

ــ قبليني .. قبليني ..

فالقت برأسها الى الوراء ، لتبتعد عنه ، فوقع بصرها على عنقه العاري ، ووضعت أصبعها في فضول على موضع عضة كاميلوس ، وسألته :

ــ ماهذا ؟.. لم اكن اعلم أن في هذا الموضع ندبة قبل اليوم..

فارتبع عليه ، وتلعثم ، ثم قال بصوت كالفحيح :

ــ انه الموضع الذي عضني فيه كاميلوس ونحن في الزورق.. وقد اندمل الجرح وانتهى أمره ، والآن قبليني .. قبليني ..

واشار بيده الى موضع الندبة ، فقد أصر على أن تقبله فوقهـا تماما .. ولكن تيريزا تراجعت بشدة ، حتى كادت تقع في النار ، وقالت :

ــ كلا .. كلا .. ليس هنا .. ليس في هذا الموضع حيث كانت شفتاه !

وارتمت على المقعد ، ووضعت رأسها بين يديها .. فجن جنون لوران ، وانقض عليها فتناول رأسها بين يديه ، وارغمها على ان تضع شفتيها فوق ندبة الجرح تماما ، وظل مطبقا بفمها على الموضع فترة ، كادت تزهق أنفاسها ... فلما أطلقها راحت تمسح فمها بتقزز ..

وكأنما خجل لوران من فظاظته ، فاخذ يتمشى ببطء في المسافة

الواقعة بين الفراش والنافذة ، فان المه من موضع العضة هو الذي جعله يطلب الى تيريزا أن تقبله .. فلما ارغمها على وضع شفتيها الباردتين فوق الندبة ، شعر بمزيد من الالم ، ولم يدر كيف يدرؤه عن نفســه ..

والقى نظرة مختلسة على المرأة التي اقترن بها ، فاذا بها منحنية فوق النار مقوسة الظهر .. وكان ظهرها المنحني يقول له انها لم تعد تحبه ، وانه أيضا لم يعد يكن لها حبا ولا رغبة ..

وشيئا فشيئا ، صارت حرارة الحجرة خانقة لا تحتمل.. وذوت الرياحين والازهار ، وفجأة خيل الى لوران انه يرى رؤيا من صنع الشياطين .. ففيما هو يتمشى بين النافذة والفراش ، رأى وجه كاميلوس يطل عليه من احد الاركان ، وقد اكتسى خضرة شبيهة بخضرة الموت حين رآه في المشرحة ، ووقف لوران كالمسمر في موضعه من الارض ، وكاد يغمى عليه لولا انه اعتمد بيديه على أحد المقاعد ، واطلق شهقة حادة لفتت نظر تيريزا ، فرفعت اليه بصرها .. فصاح وهو يشير الى ذلك الركن برعب :

ــ هناك .. هناك .. ها هو ذا هناك !

وسرت عدوى الفزع الى تيريزا ، فجاءت والتصـــقت به كمن تحتمي بصدره .. ثم أفرخ روعها وقالت له هامسة :

ــ انها الصورة ...

ــ الصورة ؟ .. اية صورة ؟ ..

ــ الا تتذكر ؟.. انها الصورة التي رسمتها انت له .. لقــد قررت عمتي ان تحتفظ بها في حجرتها منـذ الغد .. ولا بد انها نسيت أن تنقلها ...

ــ آه .. ما اغباني !.. انها فعلا صـــــــورته .. انزليها من مسمارها بربك ..

وارتعدت ولاذت بصدره قائلة :

ــ كلا ... اني خائفة !

ــ اذن نقلبها ونجعل وجهها الى الحائط لنتقى نظراته .. هيا بنا ..!

ــ كلا ! .. لا تفعل !.. أرجوك !. لا استطيع

وافلت من يدها التى تتشبث بذراعه واتجه نحو الصورة ، واذا بنظراتها الثاقبة تلتقى بعينيه فيتراجع مذعورا ، ويقول لتيريزا :

ــ كلا يا تيريزا ... الحق معك .. لا استطيع .. فلتنزلها عمتك غدا ...

وعاد الى التمشى فى الحجرة .. ولكن شيئا اقوى منه كان يشد نظراته شدا نحو ذلك الركن الذى تحتله صورة كاميلوس ..

وبعد قليل سرى الذعر فى العروسين ، لانهما سمعا صوتا على السلم الخلفى المفضى الى الحجرة من الزقاق .. وهو السلم الذى كان لوران يستخدمه فى تسلله .. وصاح لوران فزعا :

ــ انى اسمع احدا يصعد السلم .. من تراه يكون ؟

ولم تجبه المرأة .. فقد انصرف ذهنهما معا الى الغريق .. لماذا لا تكون روحه هى التى تصعد السلم ؟

واسرعا الى اقصى الحجرة ليبتعدا من الباب .. وهما يتخيلان أن الباب سيفتح فى اية لحظة ، وتسقط منه على الفور جثة كاميلوس ، وظلا منكمشين فى ذلك الركن بضع دقائق .. ثم سمع صوت مواء ، واخذ الباب يهتز ..

انه القط « فرانسوا » ...

وفتح لوران الباب ، وانقض على القط المسكين والقاه من حالق .. وصرخت تيريزا صرخة خافتة وناشدته الا يفعل .. ولكنه هتف بها :

ــ أنا لا احب القطط .. يخيل الى ان هذا القط يعرف اكثر مما تعرفه القطط الاخرى .. ان روح كاميلوس تقمصته ! يجب ان اقتله يوما ما ...

وجلس الاثنان بجانب النار مرة أخرى ، وقد نال منهما الاعياء العصبى الطويل .. ورنقا للنوم هنيهة .. ثم ما لبث الفجر ان أرسل أولى أشعته .. وهما على حالهما فى ليلة عرسهما جالسين بثيابهما على مقعدين متقابلين .. وبينهما نار خمدت بعد تأجج .

ولما ملأ الضوء الباهت الحجرة ، تمطى لوران وقال :

ــ يالها من ليلة .. ولكننا سننام نوما عميقا فى الليلة القادمة ؟

ولن تشعر بمثل هذه المخاوف الصبيانية بعد اليوم ، فحاولى اليوم ان تكونى مرحة بعض الشىء ...

فنظرت اليه نظرة غباء واعياء ، وقالت :

ــ ساجتهد ...

الندم

ولكن الليالى التالية كانت ادهى وامر .. وكان فى ظن القاتلين أن وجودهما معا فى فترة الليل سيحميهما من غوائل العريق ، فلما باتا حقيقة معا تضاعف باجتماعهما الفزع والارتجاف !

وقبل ان يعرف لوران « تيريزا » ، كان سعيدا الى حد كبير — وهو لا يدرى — بحياة الهدوء والطمأنينة والحيوية الحيوانية التى ورثها عن سلالته الريفية .. فقد كان ينام وياكل ويشرب فى اقبال وشهية شأن الحيوان السليم البنية . ومهما نزل بساحته من الاحداث ، لم تكن لتزعزع طمأنينته ، ولم يكن يزعج نومه او يقلق باله الا تأثير بدانته وما ينتجه من الوخامة فى الايام الحارة .. فهو على الجملة قبل هذه الصلة ، كان يعيش حياته بدمه وعضلاته لا باعصابه . ثم اذا به بعد ان مضى شوطا طويلا فى هذه الصلة ، وقد صار اكثر حساسية .. وكانما كانت القبلات الاولى من عشيقته ايذانا بيقظة جهازه العصبى ، ثم صار كالمدمن نوعا من المخدر لا يستطيع ان يعيش الا اذا سرت فى دمه جرعات جديدة منه بين الحين والحين . وهكذا سيطر تكوينه العصبى على مقاليد حياته وعزل دمه ، وافقده توازنه القديم ..

ولوران الآن فى هذه المرحلة من اختلال الاعصاب .. ولولا ذلك لما ارتعد كما يرتعد الطفل الغرير امام زاوية مظلمة فى سلم الدار التى يسكنها ، او امام ركن معتم فيه صورة . وكان الارق عاملا مشددا ، اتم عليه الاختلال ، وجعله كريشة فى مهب الريح . ونفذ الندم اليه من اوسع الابواب كموج الطوفان لاقبل له بمصارعته

ولكن ندم لوران كان ندما بدنيا محضا .. يحسه فى حلاياه وق

اعصابه المتوترة ولحمه المرتجف خوفا من غوائل الرحل العريق . فليس لضميره دور فى هذه المخاوف .. وهو لا يشعر بأدنى أسف لانه اغتال كاميلوس . ففى اللحظات التى لا يبدو له فيها شبح القتيل ، كان ينعم بالهدوء التام .. بل انه كان حريا لو تيسر للامور عود على بدء ان يقتل كاميلوس مرة اخرى ، لو تحقق لديه ان مصلحته فى هذا القتل !

والحق أن امر لوران فى هذه الفترة عجيب .. فهو فى النهار يضحك على نفسه ويهزأ من مخاوفه ، ويتعهد بأن تكون فى الليلة القادمة اشد تماسكا واصلب عودا .. ويتهم تيريزا بانها ترعجه وتؤرقه بما يسرى اليه من عدوى ضعفها وقلقها .. ففى ظنه أن تيريزا هى التى ترتجف ، وانها وحدها هى التى تتسبب فى التعاسة التى تسود حجرة نومهما طول الليل .. ويلازمه هذا الشعور بقوته الى ان يرخى الليل سدوله ، فمتى اغلق عليه باب المخدع مع زوجته جعل جلده ينضح بعرق بارد ، ويهزه خوف صبيانى ، وتتداعى اعصابه تداعيا يغشى على حواسه .. فكان هذه المخاوف الليلية نوع من الحمى الراجعة التى تنتاب المريض فى مواعيد معينة ، ويبرأ منها تمام البرء فى غير تلك المواعيد . وليس التشبيه بالمرض هنا مجرد تشبيه ، فلهذه المخاوف الليلية اعراض كاعراض الامراض .. وهو لا يشعر بها الا فى الليل مع تيريزا .. كانما تسرى اليه العدوى منها !

واما تيريزا ، فهى ايضا فريسة هزات عنيفة .. ولكنها كانت بحكم تكوينها الاصلى ذات استعداد لهذه التأثيرات الانفعالية العميقة . وكل ما هنالك ان ازمة مصرع كاميلوس ارهفت هذا الاستعداد وجعلته يؤتى أقصى ثمراته ..

وهى فى رعبها تمثل الانوثة .. ولذا تقترن مخاوفها وارتجافاتها بنوبات من الندم . وكم من لحظة مرت بها وهى تقاوم الارتماء على ركبتيها تحت قدمى شبح كاميلوس ، تناشده الرحمة والعفو وتعاهده على التكفير . ولعل لوران كان مدركا بعض الادراك لتلك الحالة .. فحين يرتجفان معا فى الليل ، كان يلومها على ضعفها ويعاملها بقسوة وخشونة

وفى الليالى الاولى من عرسهما ، لم يجسرا على النوم فى الفراش .. فكانا ينتظران مطلع النهار جالسين قرب المدفأة ، او يذرعان الحجرة جيئة وذهابا ، كما كانا يفعلان ليلة القران .. فمجرد التفكير فى الرقاد جنبا الى جنب فوق ذلك الفراش ، كان يسبب لهما نوعا من النفور والذعر .. وبالعناق ضمنى تحاشى الزوجان القبلات ، ولم يعيرا الفراش التفاتا .. وكل ماهنالك أن تيريزا كانت تعبث بأغطيته وتهوشها عند مطلع كل صباح تمويهـا على من قد يدخل الحجرة !

وحين كان يغلبهما التعب على امرهما ، كانا ينامان على مقعدين نوما تتخلله الكوابيس المفزعة .. حتى اذا استيقظا مع الصبح ، كانت أطرافهما متراخية ، ووجهاهما حائلى اللون ، فيتبادلان النظر فى بلاهة .. وينتابهما نوع غريب من الخجل لما ابداه كل منهما امام الآخر من فزع

ومن البديهى انهما كانا يتحاشيان النوم تحت ضوء تلك الظروف ما استطاعا الى ذلك سبيلا ، ويفضلان قضاء أطول وقت ممكن جالسين بجوار نار المدفأة ، يتبادلان الاحاديث فى اتفه الامور وابعدها عن الترابط .. وكل حرصهما ليس موجها الى انتقاء الموضوعات ، بل الى اتصال الحديث بحيث لا تخبو جذوته ولا تفلت خيوطه

واعجب من موضوعات الكلام التى لا تنقطع انهما لا يحولان رأسيهما عن النار التى بينهما ، فكلما التفت أحدهما يمنة او يسرة خيل اليه أن شبح كاميلوس قائم فى الحجرة ، وانه يهم بالزحف ليجلس بينهما ويبسط يديه التماسا للدفء بوهج النار ..

وكان يخامرهما فى أحيان كثيرة احساس غريب بأن جثة ذلك الغريق قد عادت الى الظهور ، مثلما ظهرت فى ليلة العرس ، وانها قابعة فى بعض الاركان المعتمة تتسقط ما يدور بينهما من أحاديث وتسخر منهما .. فيلقيان النظر الشزر للتأكد من هذه الاوهام !

وانتهى الامر بلوران الى رفض الجلوس .. وتشبث بذلك الرفض ، وهو يأبى أن يدلى بأسبابه الى تيريزا . وكيف يخبرها انه لا يأمن على ظهره من غائلة شبح كاميلوس الذى يخاله دائما هنا أو هناك ؟

وانقضى اسبوع كامل والعروسان يقضيان الليالى بطولها على هذا النحو المرهق .. يستريحان بعض الشىء فى النهار ، ويستقبلان الهول مع سدول الليل . واعجب من هذا كله ، سلوك كل منهما نحو صاحبه . . فما من كلمة حب ، وكان ماكان بينهما اضغاث احلام لا سبيل الى تجدد سيرتها او وصل ما انقطع منها .. فالذى بينهما اليوم ان هو الا تجلد ، او مطاولة ، او احتمال للمعاشرة على مضاضة شديدة .. ومنتهى املهما ان يفلحا فى اخفاء النفور والتقزز والاستمرار فى حفظ المظاهر ..

وبعد الاسبوع الاول ، بلغ من شدة اعيائهما انهما تجاسرا على الاضطجاع فوق الفراش .. ولم يخلعا ثيابهما خشية أن يتلامس جسداهما ، وكان اية ملامسة بينهما ستسبب لهما الما .. !

وبعد ان قضيا ليلتين على هذا المنوال ، ينامان نوما خاطفا غير عميق .. جازفا بخلع أرديتهما والدخول تحت الاغطية ، بيد أنهما ظلا حريصين على تباعد جسديهما .. فكانت تيريزا هى التى تندس تحت الاغطية اولا الى جهة الحائط ، وينتظر لوران الى أن تستقر فى وضعها المريح للنوم . ثم يغامر هو بالرقاد على الطرف الاخر للفراش ، فتبقى بينهما مسافة عريضة خالية ..

وفى هذه المسافة الوسطى كان يرقد جثمان كاميلوس ! ..

فعندما يضطجع القاتلان تحت غطاء واحد ويغمضان جفونهما ، كان يخيل اليهما أن جثة ضحيتهما الرطبة مسجاة فى وسط الفراش ، فتسرى قشعريرة الزمهرير فى اوصالهما . وتظل هذه الجثة حائلا شديدا بينهما ، وتنتابهما الحمى والهذيان فيخيل اليهما أنهما يلمسان أطراف الجثة ويتنسمان ريحها .. فيحبسان الانفاس حتى طلوع النهار

وكان يخطر ببال لوران فى بعض الاحيان ، أن يهجم على تيريزا فيضمها بعنف بين ذراعيه ، كى يقضى بضربة واحدة على ذلك الوهم المزعج .. ثم لا يجد الجرأة على ذلك ، لشعوره بانه لايمكن أن يمد ذراعه من غير ان يصطدم بجثمان كاميلوس . ويقر فى ذهنه أن القتيل لم يختر لرقاده هذا الموضع الوسط الا ليحول دون عناقهما

واخيرا رسخ لديه الاعتقاد بأن الزوج الغريق يغار منه ...

وبعد مدة تجرا على محاولة اختلاس القبلات جسا لنبض الشبح، فكان الشاب يسخر من خوف زوجته ويامرها بتقبيله .. فاذا للشفاة ملمس بارد كان الموت سرى اليها . ويعقب ذلك احساس بالغثيان ، وترتعد تيريزا فزعا .. وتصطك اسنان لوران ، ويثور غضبه عليها صائحا :

— لماذا ترتجفين ؟ هل انت خائفة من كاميلوس ؟ هيا تعالى بين ذراعى فلم يعد هذا المسكين قادرا على الاحساس بشىء ! ..

وكانت تيريزا تخفى راسها تحت الاغطية وتنتحب .. فيزمجر زوجها قائلا :

— كنا نتعانق بلا وجل قبل موته ، ويتلهف كل منا على احضان الآخر .. ثم القينا به الى اليم ليخلى لنا الطريق .. ولالقينه الى اليم مرة اخرى ان لزم الامر كى يخلو لنا الجو .. فدعى هذا البكاء وتشددى ، فمن البلاهة ان نعكر صفو سعادتنا .. هيا قبلينى !

وقبلته المراة وهى ترتجف .. ولم يكن هو اقل منها ارتعادا !

ومر اسبوعان او اكثر ، وهما يحاولان الانسياق فى حبهما .. ومع هذا لم يفلح لوران فى الاحساس بان تيريزا ارملة ، بل اكتشف انه تزوج من امراة لها زوج لم يزل موجودا .. وان كان حثمغريقا

الفصل الثالث والعشرون

جهد اليائس

وشيئا فشيئا ، اقترب لوران من نقطة الجنــون الصريح .. فصارت الفكرة المستولية عليه هى طرد كاميلوس من فراشه . وفى البداية كان يرقد فى الفراش بكامل ثيابه ، ويتحاشى أن يلمس جسد تيريزا .. ثم قرر التحدى والاقدام على عمل يائس، فيحتضن زوجته ويحطمها بين ذراعيه خيرا من ان يتركها لقمة سائغة لشبح ضحيته . وكان هذا التصميم عملا من اعمال العنف الغاشم الذى لا تستطيعه الا الطبائع الحيوانية ..

وذات ليلة ضم تيريزا بين ذراعيه فجاة ، مجازفا « بالمرور » فوق جثة الرجل الغريق التى ترقد فى وسط الفراش . وكانت تيريزا من جانبها قد سئمت هذه الحياة القاسية ، حتى باتت ترحب بالارتماء فى النار التماسا للخلاص من هذه الزعازع والاوهام .. فكانت ترد على عناق لوران بمثله ، وتبادله لهفة بلهفة ، واحتراقا باحتراق .. فاما احترقت بناره ، او وجدت فى أحضانه راحة لنفسها ، وقضاء على الاوهام التى استعبدتها ..

ولما اكتمل عناقهما ، سرى فى جسديهما الالم والرعب ، وكانهما سقطا فى اتون من الفحم الحجرى المتقد ، فاطلقا صرخــة وازداد تشبث كل منهما بصاحبه ، حتى لا يتركا بين جسديهما المتعانقين ثغرة ينفذ منها شبح كاميلوس . ومع هذا لازمهما الاحساس بان جثمان كاميلوس محصور بين جسديهما وان عناقهما يعصره عصرا، ويؤكد لهما وجوده ..

وبعد برهة ، لم يعد لديهما شك فى انهما يزيدان من عذابهما بهذه المحاولة اليائسة .. فانهما لم يجنيا الا صيحات الالم وشعور

الاعياء ، ولم يشعرا براحة لاعصابهما المتوترة . واخلف ذلك العناق احساسا عميقا بالتقزز والهذيان ، فانفجرا باكيين .. وخيل اليهما ان شهقات بكائهما تتخللها ضحكات سخرية . وان جثة كاميلوس ترقد منتصرة ، وهي ترمق بعين الشماتة لوران وهو منبطح على الفراش يبكي ، من شدة القهر ، وشعوره بالعجز !

وبلغ من احساس تيريزا بصدق هذا الوهم ، انها جعلت ترتعد خوفا من استغلال الجثة لفرصة انتصارها ، فيتقدم شبح كاميلوس الى احتوائها بين ذراعيه باعتباره مولاها الشرعي !

وشد ما احزنهما يقينهما ان مافشلا فيه كان هو السهم الاخير في جعبتيهما ، وانهما لن يستطيعا بعد الآن تبادل قبلة واحدة ، وهكذا ادى بهما استخدام العشق للقضاء على الرعب الى مزيد من الرعب .. وقد تحققا ان عشقهما نفسه قد قضى عليه الفزع والخوف . ولم يدريا ماذا يصنعان بنفسيهما بعد ذلك !

ومنذ تلك الفترة ، بدأ الزوجان يعيشان حياة مزدوجة ذات وجهين .. ففي الصباح يرتدي لوران ثيابه على عجل ، ولا يشعر بالامن والاستقرار الا عندما يخرج الى قاعة المائدة ، وامامه قدح كبير من القهوة واللبن الساخن اعدته له تيريزا . وفي مواجهته جلست مدام راكان ترقبه ، وهو ياكل ، باسمة في حنان .. فيحشو جوفه بالكعك والفطائر ، ويشرب كاسا من البراندي ، فترتد اليه ثقته بنفسه ، ثم يلقي التحية ويخرج الى عمله من غير ان يعبأ بالمرائين ..

ومع مقدم الربيع ، كان هواء الصباح المنعش يجدد قواه .. وصار يتحرى في مسيره الجوانب المشمسة ، ومتى وصل الى مكتبه قضى النهار بطوله متثائبا في انتظار وقت الانصراف .. ولا تضيره نومه ، فهو كاتب مثل سائر الكتبة لا رأس له . وبدأ يفكر في استئجار مرسى هادئ يقضي فيه النهار نائما ليعوض ارق الليل ..

واما تيريزا ، فهي من جانبها تشعر بكل راحة وهدوء طالما ان لوران بعيد عنها . وهي تشغل نفسها طوال الصباح في الكنس وتنظيف الحجرات وغسل الاطباق وما الى ذلك من الاعمال التي كانت تثير نفورها واشمئزازها فيما مضى . ولكنها اليوم متشفي

حين ... ل بالها الى وقت الظهر ، فلا تجد وقتا للتفكير والقلق .. ولا تشغل ذهنها الا العنكبوت العالق بالسقف والاوضار العالقة بالصحاف . وعند حلول الظهر ، تدخل المطبخ لاعداد الغداء ، ثم تتناوله مع عمتها مدام راكان ..

وكانت العمة تحزن لما تراه من ارهاق تيريزا لنفسها بالعمل ، وتناشدها ان تستأجر خادمة . ولكن تيريزا تجيبها انها تؤثر التدبير والاقتصاد ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا ..

وبعد الغداء ترتدي تيريزا الثياب اللائقة ، وتنضم الى عمتها لتصريف شئون المتجر ، فتجلس في مقعدها المعتاد وتسلم عينيها للاغفاء ، وتظفر اعصابها اخيرا بشيء من الراحة استعدادا لمحنة الليل .. ولولا هذه الفترة من القيلولة ، لاصيبت بانهيار عصبي واضح

وتدوم هذه الفترة الى الساعة الرابعة بعد الظهر ، حتى اذا سمعت الدقات الاربع ، نهضت قائمة وصعدت الى المسكن لتدخل المطبخ مرة اخرى ، وتعد على عجل طعام لوران .. حتى اذا بدا زوجها على عتبة الباب ، انتابت جسدها اعراض القلق والاضطراب ، وكان كابوسا جثم على صدرها !

ولم يرد مرور الايام ذلك الاحساس الا رسوخا ، حتى بات كل منهما يعمل الف حساب لوجود صاحبه معه ، ويتمنى لو طالت فترة النهار التي تباعد بينهما تلك المباعدة الواضحة

اما في الليل فكلاهما يرحب بالسهر مع مدام راكان اطول مدة ممكنة ، تأجيلا للحظة العذاب بدخول مخدع النوم . وكان من نتيجة هذا الاحساس ان امسيات الخميس ، بسهراتها الممتدة ، كانت احب اليهما من سائر امسيات الاسبوع الهادئة

وبعد فترة اخرى من الوقت ، بدأ الشلل يزحف الى جسد مدام راكان العجوز .. فهالهما ذلك لان معناه انفرادهما معا معظم الوقت ليلا ونهارا ، فاسرعا باستدعاء الاطباء ، وسهرا على علاجها بلهفة شديدة لم تدرك العجوز سرها الحقيقي ، فحمدت لهما وفاءهما .. وهما في الحقيقة يخشيان بوفاتها ان تمتد حجرة نومهما حتى تشمل الدار كلها ، حين يكون الزوجان القاتلان وحدهما وجها لوجه ، ويكون

ثالثهما دائما جثمان كاميلوس !

وكان هدوؤهما فى النهار ، يلقى فى روع الاصدقاء ان الحب يسود حياتهما ، وانه حب من النوع الهادىء المطمئن الذى لايحتاج الى كلام !

الفصل الرابع والعشرون

العودة إلى الفن

وبعد انقضاء اربعة اشهر ، بدا لوران يفكر فى جنى بعض مزايا الزواج التى طالما منى بها نفسه ، وذات مساء قال لمدام راكان وتيريزا انه قدم استقالته ، وانه سوف يغادر مكتبه الى الابد فى مدى اسبوعين .. فاظهرت تيريزا بعض القلق ، وان لم تقل شيئا ، واسرع لوران يوضح خطته :

ــ وساستاجر مرسما صغيرا ، واعود الى ممارسة الرسم ...

واسهب فى بيان السام الذى يشعر به فى عمله بالسكك الحديدية، وانه لم يخلق لمثل هذا العمل الآلى .. وكيف ان الآفاق فى الفن رحبة ، وهى جميعها مفتوحة امامه لو انه ثابر واجتهد .. وما دام الآن يملك المال الكافى لضروراته ، فمن الاجرام فى حق نفسه الا يمنحها الفرصة لتحقيق عظائم الامور والوصول الى الشهرة المستفيضة ...

ولم يكن هذا الحديث كله الا تمويها يستر به اشتياقه وحنينه الى حياة المرسم الاولى قبل انقطاع مال ابيه عنه واضطراره للتوظف .. وهى حياة طابت له بمباذلها وما تسمح له من اشباع حواسه على مائدة جمال الموديلات ، لا بما يبدع من تصوير ذلك الجمال على القماش !

وعضت تيريزا على شفتيها غيظا ، لانها لا تنظر بعين الرضا الى انفاق لوران لبائنتها التى تقيها عوادى الزمن وتضمن لها استقلالها المادى فى سبيل اشباع هواياته ولذاته الشهوانية المعروفة لها جيدا ...

ولما الح عليها فى ابداء رايها ، اعربت له باوجز بيان وفى لهجة

حاسمة عن عدم استساغتها الا يكسب معاشه بعرق جبينه . وان يركن الى جهودها وبائنتها ومنجرها ، ويكون عالة عليها فى كل شىء !

ورشقتها لوران بنظرة ثاقبة وهى تتكلم ، فاضطربت وتلعثمت.. ولم تجسر على النطق بالاعتراض القاطع الذى كان على طرف لسانها ، فقد قرات فى نظرته التهديد :

ـ ساقول كل شىء للعجوز ان لم توافقى !

وبدات تيريزا تتلعثم .. فاسعفتها مدام راكان قائلة :

ـ ان ولدى العزيز « فهكذا صارت تدعو لوران » على صواب تماما فى وجهة نظره .. ويجب ان تتيسر له الفرص لابراز مواهبه

فقد كانت المسكينة تدلل لوران ، كما كانت تدلل كاميلوس من قبل ، وكانت تسر للدعابات والقبلات التى يغمرها بها الشاب ، فكانت دائما فى صفه ، لاترد له طلبا ..

وهكذا تم الاتفاق على ان يستاجر الفنان مرسما صغيرا ، وان يتقاضى من زوجته وعمتها مائة فرنك ذهبا كل شهر لمصروفاته الخاصة ، وتم اعداد ميزانية الاسرة اعدادا جديدا على هذا الاساس ، وبحيث لا يمس راس المال بحال من الاحوال .. وهكذا اطمان بال تيريزا ، ولا سيما بعد ان جعلت زوجها يقسم على عدم تجاوز مخصصاته ...

وفى اليوم التالى مباشرة استاجر لوران ذلك المرسم الصغير الذى كان قد وضع عينيه عليه منذ شهر ، عند نهاية شارع ماسارين ، وهناك عول على ان يقضى معظم وقته فى النهار ، بعيدا عن تيريزا ، حتى ولو لم يشغل نفسه فعلا برسم شىء !

وبعد اسبوعين ، ودع زملاءه فى شركة سكة حديد اورليان ، ونقل مقره الرسمى الى المرسم ، وهو عبارة عن خزانة فى اعلى البناء ، طولها ست ياردات ، وعرضها مثلها ، وارتفاعها مثلها ايضا ، ولكن السقف مائل ، وفيه نافذة كبيرة ، وضجة الشارع لا تصل الى ارتفاع الحجرة .. فهى اشبه بكهف اغبر اللون فوهته الى فوق ، وهو معزول عن الدنيا كلها

واحضر لوران مقعدين عتيقين ، ومائدة صغيرة ، ودولابا للمطبخ،

ولوحة للرسم ، وصندوق الوان ، وعنى باقتناء قطعة واحدة من الاثاث الفاخر الوثير ، هى اريكة أو مضجع ضخم فخم عريض كأنه الفراش

وقضى الاسبوعين الاولين هناك وحده ، لا يفكر فى لمس الالوان والفرشاة .. فكان يصل فى نحو الساعة التاسعة ، ويستلقى على الاريكة الوثيرة فيدخن مسترخيا الى وقت الظهر ، فيمضى الى « ممر القنطرة الجديدة » لياكل ، وبعد الغداء يعود ادراجه الى المرسم بسرعة ، ليتخلص من وجه تيريزا الذى يذكره باشجانه ومتاعبه ، ويقضى بقية النهار مستلقيا يدخن ، او نائما ، ولا يعود الى البيت الا فى الليل !..

وابدت تيريزا رغبتها فى رؤية هذا العش ، فلم يرحب بهذه الفكرة ، ولكنها نفذتها .. وذهبت فى اليوم التالى ، وطرقت عليه الباب ، وعرف خطوتها على السلم ، فابى ان يفتح وتركها تعود خائبة ، وفى المساء زعم لها انه قضى اليوم فى متحف اللوفر ، فقد كان يخشى ان يدخل معه شبح كاميلوس الى هذا الملاذ الامين الذى يعتصم به من مخاوفه

واخيرا بدا الفراغ يثقل على نفسه ، فاشترى قماشا واطارا وشرع يعمل .. ولم يجد لديه فى الوقت الراهن ما يكفى من المال لاستئجار فتاة نموذج كى يرسمها ، فقرر ان يرسم شيئا خياليا ، غير مبال بالواقع او الطبيعة

وكان أول شىء بدا به رسم راس .. راس رجل ، ثم رسم صورا اخرى من الخيال .. وصار يكثر من الخروج الى الشمس والى المتاحف ، وفى بعض جولاته هذه التقى بصديقه القديم الذى كان يشاركه مرسمه ، وهو رسام صارت له شهرة حسنة .. وقد ادهشه أن يرى لوران بهذه الاناقة ، كانه على حد قوله « سفير » ، وادهشه اكثر من هذا أن يعلم أنه تزوج من امراة موسرة تنفق على ثيابه وطعامه وطبافه ، وتؤجر له مرسما .. وكانت ثالثة الاثافى انه استقال وتفرغ للرسم ..

ـ لماذا لا تأتى لتزور مرسمى دقيقتين ؟..

ـ بكل سرور يا لوران ! هيا ...

وما أن أراه اللوحات القليلة التي اتمها حتى ابدى دهشته ، ولم يحاول اخفاءها :

— أهذه اللوحات حقا من رسمك انت ؟..

— اجل .. وهي كلها مشروعات ابتدائية للوحات سأتمها فيما بعد ...

— أتقول جادا انها من رسمك أنت ؟

— طبعا ... ولم لا ؟

— لان هذه الرسوم من صنع فنان راسخ .. ولم تكن فيما عهدتك الا بادئا ..

والحقيقة انها لم تكن رسوما متقنة ولا جيدة الصنع ، ولكنها رسوم من نوع خاص .. لها غرابتها وطرافتها واصالتها ، ولها على الخصوص قوتها التي تؤثر في النفس لاول وهلة .. وهي قوة تدل على موهبة واصالة ولا يمكن اكتسابها بالتعلم

وهز الصديق رأسه متحيرا ، ثم قال :

— كل ما اوجهه اليك من ملاحظة ان هذه الرسوم الخمسة تمثل خمسة وجوه لخمسة رجال ... وهي جميعا متشابهة ،كأنما الرجال الخمسة ابناء اسرة واحدة . ولو عرضتها في معرض واحد، لبدا ذلك مضحكا .. وكأنك « رسام عائلي » ترسم اسرة واحدة ، او اشقاء بمعنى اصح ...

وبعد ان نزل الضيف ، انصرف لوران الى تأمل لوحاته الخمس ، ولم يلبث ان تبين صدق ملاحظة صاحبه ، فقال بارتياع :

— انها فعلا وجوه متشابهة .. كلها تمثل وجه « كاميلوس » ..

وارتمى على الاريكة ...

فرغم كل شيء ، استطاع كاميلوس أن يدخل الى المرسم ، ويفرض نفسه على فرشاته والوانه .. لانه فرض نفسه على اعصابه منذ رأى جثته معروضة في المشرحة العامة

وشيئا فشيئا ، دبت الحياة في الرسوم الخمسة .. واذا به أمام خمسة « كاميلوسين » .. فهب مذعورا ، وانقض على الرسوم فمزقها اربا ...

وارتمى بعدها على الاريكة وتنفس الصعداء ، الى ان خامرته

فكرة ازعجته غاية الازعاج ؟.. انه لن يستطيع رسم شيء الآن الا وفيه شبه قريب من كاميلوس .. ان شبح كاميلوس قد ركبه وسيطر عليه وكمن في خلايا اعصابه ..!

واراد ان يستوثق على الفور من انه لم يزل سيد يده ، فتناول الفرشاة وراح يرسم وجها .. واذا به امام ملامح كاميلوس ، ونظراته وسحنته !

وكرر المحاولة.. وفي كل مرة يطل عليه وجه كاميلوس من زاوية معينة !

وفي غيظ شرع يرسم قططا وكلابا وحميرا .. ومن عجب ان القطط والكلاب والحمير كانت دائما ذات شبه في بعض ملامحها بكاميلوس !

وجعل يمزق الاوراق ، وحطم الفرشاة تحت قدميه . وقد خيل اليه انه لم يعد صاحب الامر والنهي والسلطان على اصابعه ، وان يمينه لم تعد ملكا خالصا له .. وبمعنى آخر ان يمينه لم تعد من ملك يمينه ! وانه كلما تناول الفرشاة ، لن يرسم شيئا سوى وجه كاميلوس ..

الفصل الخامس والعشرون

العقيـدة

واخيرا لم يبق من الكارثة التى طالما حذراها بد .. فقد نزل الشلل بمدام راكان بين يوم وليلة نزولا واضحا ، بعد ان ظل يناوشها ويرجع عنها فترة مديدة .. فاذا بها قعيدة لا تستطيع الحركة ، بكماء لاتستطيع بيانا ، ففى ذات مساء ، بينما هى تتحدث كعادتها بهدوء الى تيريزا ولوران ، توقفت فى وسط عبارة من عباراتها فاغرة الفم .. واحست كأن يدا تخنقها ...

وحاولت ان تصرخ ، وتنادى فى طلب النجدة ، فلم تخرج الا اصواتا متحشرجة .. فقد تحول لسانها الى حجر ، وتخشبت قدماها ويداها ...

وهبت تيريزا ولوران واقفين ، وهما فى حالة فزع شديد ، ولم يكن الشلل قد اصاب نظراتها ، فهى تنظر اليهما نظرات فزع واستغاثة .. وهما يلحان عليها بالاسئلة يستوضحانها ، فلا تستطيع جوابا وان سمعتهما بوضوح .. فنصفها السامع الرائى حى ، ونصفها المتحرك المتكلم ميت ..

وافزعهما هذا الرزء ايما فزع .. ولم يكونا فى اعماقهما يباليان كثيرا بآلام هذه العجوز المشلولة .. بل كان تكاؤهما على نفسيهما، وقد كتب عليهما ان يعيشا وحدهما معا ، وليس فى حديثهما طرف ثالث ، فمنذ هذا اليوم لا يمكن ان تطاق حياتهما الا بجهد جهيد ، ففى كل مساء هما معا وجها لوجه مع تلك العجوز المستلقية فى مقعدها الكبير كالركيمة فى البر ، فيلوذان على جانبيها بصمت طويل محرج ..

وانها لجثة .. ولكنها جثة لا قدرة لها على التفريق بينهما ،

مثل جثة انهما الغريق ، فما أكثر ما كانا يتنسيان وجودها ويحتسبانها من قطع الاثاث الصماء.. وعندئذ ترحف اهوالهما من حجرة النوم الى حجرة المائدة ، ويتراءى لهما هناك أيضا شبح كاميلوس .. وهكذا تتضاعف فترة عذابهما منذ أول المساء

وصار من عادتهما ان يجعلا المرأة المسكينة دائما تحت ضوء المصباح مباشرة ، كى يتسنى لهما رؤية معالم وجهها وتعبير عينيها فى كل وقت .. فاذا هومت للنوم واغمضت عينيها ، صارت سحنتها اشبه بسحنة جثة بيضاء الشعر ، بيضاء الوجه .. فيضيقان بها وربما احدثا من الجلبة فى حركاتهما او حديثهما ما يتكفل بايقاظها ! فهى عندهما وسيلة تسلية وتلهية عن احلامهما التى تراود يقظتهما كلما اجتمعا بليل .. والعناية التى يبذلانها لها تشغل ذهنهما عن التفكير فى ماساتهما الموبقة ..

ان لوران هو الذى يخرجها من فراشها فى الصباح ، ويجلسها فى مقعدها الكبير .. وهو الذى يضجعها فى الليل فى فراشها.. وكانت ثقيلة ، فكان يحتاج الى كل قوته ليحملها فى رفق بين ذراعيه ، وهو الذى يدفع مقعدها ويحركه هنا وهناك .. اما بقية شئونها ، فتيريزا هى التى تقوم عليها ، فهى التى تلبسها ثيابها ، وهى التى تلقمها الطعام ، وهى التى تجتهد فى فهم نظراتها .. فنظراتها هى الوسيلة الوحيدة للتعبير عن رغباتها ، وكانت هذه العناية الدكية الدءوب مشغلة ذهنية وبدنية تحمل فى ثناياها الراحة الى تيريزا

واستمرت اجتماعات مساء الخميس على حالها السابق .. والعجوز المسكينة تحضرها ، مستلقية فى مقعدها الكبير ، تحت المصباح ، من الثامنة الى الحادية عشرة لا تطلق عينيها .. وتنقل بصرها من هذا الضيف الى ذاك !

وكانت مدام راكان تشعر بمنتهى السعادة لهذه العناية التى تحظى بها من جانب الجميع .. واكتسبت نظراتها مزيدا من الصفاء والرقة فى كل يوم .. وقضت بضعة اسابيع على هذا النحو فى انتظار الموت ، قانعة بما ادته فى حياتها

وذات ليلة كانت محطمة القوى فاستلقت .. واغمضت عينيها حتى نسيا وجودها ، ودهمهما شبح كاميلوس ، فراحا يتحدثان

بصوت مرتفع ليلوداه عنهما ، وندت منهما الفاظ فصحت سرهما كله للبكماء المشلولة • وكان لوران على الخصوص فى نوبة عصبية ، جعلته يصيح كالمحانين بما فى صدره ••

وهكذا عرفت المشلولة كل شيء ذات ليلة ••

وكانت هذه المفاجأة شديدة الوقع على نفسها ، ووضح من نظراتها الغيظ كأنها توشك أن تخلع عنها ملتها المقعدة وتثب من موضعها لتخنقهما بيديها العاجزتين •• !!

ولم يتغير تعبير عينين كما تغير تعبير عيني مدام راكان من الصفاء والرقة الى القسوة والحقد والصفيقة •• فكأن عينيها قطعة من معدن لامع جامد رنان •• وما فى دخيلة نفسها كان أدهى وأمر ، كأنه زلزال يقيمها ويقعدها .. فهاهى ذى ترى كل تعبها ، وثروتها ، وحنانها ، وعطفها ، وسخائها وقد ذهبت هباء وديست تحت الاقدام ••

والآن لم يبق لها شيء تعيش له .. لم يبق امامها الا ان تموت جاحدة للحب كافرة به وبالصداقة والوفاء •• فلا وجود فى الدنيا لسوى الخيلة والختل ••

ماذا ؟ ••

كاملوس حقا مات بيدى تيريزا ولوران ؟ دبرا مقتله على فراش الحنا والفجور ؟ !

واتقدت عيناها كأنها تريد أن تنهش جسما لوران وتيريزا ، فاسرع لوران يحملها الى فراشها وهو يتحاشى نظراتها •• ولما أضجعها وجدها تحملق فيه بتلك النظرة الجارحة ، فقال متهكما :

ـ حملقى فى وجهى ما شئت •• فلن تأكلنى نظراتك !

ولكمها فى وجهها فاغمى عليها ، وغادر الحجرة ••

الفصل السادس والعشرون

الانتقام

وفى يوم الخميس التالى ، شعر القاتلان بعدم ارتياح شديد عند اقتراب موعد حضور الضيوف •• وهمست تيريزا لزوجها :

ـ هل من المأمون أن نتركها معهم ؟

ـ هراء ماتظنين يا امرأة •• انها مشلولة فكيف يمكنها أن تتكلم؟

ـ ربما استطاع غيظها ان يهديها الى وسيلة للايقاع بنا ••

ـ لا تخافى •• فقد أكد لى الطبيب انه لا أمل فى شفائها •• ولا ضرورة للظهور باى مظهر غير عادى امام الناس ، دعيها فى موضعها المعتاد ••

ـ نستطيع ان نحتج بمرضها •• وانها لا تستطيع الليلة مبارحة الفراش

ـ وهذا هذيان •• لان ميشو وجريفيه سيقتحمان الحجرة على طريقتهما الضاحكة ، ويحاولان التحدث اليها بالاشارة . وكلاهما بعيد فهم نظراتها الآن •• وقد يلحظان شيئا غير عادى •• كلا •• كلا .. ليكن كل شيء على ما هو عليه .. ولن يفطنا الى شيء ..

وكان للوران ما أراد ، فحضر الضيوف ليجدوها فى موضعها المعهود

وكانت مدام راكان تنتظر سهرة الخميس بفارغ الصبر كى تشي بالقاتلين ما وجدت الى ذلك سبيلا . وكانت حتى اللحظة الاخيرة ، تخشى الا يسمحا لها بالحضور . واعتمدت على نظراتها وتعبيرها القوى فى محاولة ابلاغ مرادها لميشو وجريفيه • ولكن الضيوف لم يلاحظوا شيئا •• وجلسوا يلعبون الدومينو ، فبذلت مجهودا يائسا لتحرك يدها وتشير بها الى « ميشو » كى تلفت نظره••

وبمعجزة من معجزات الإرادة الحاقدة ، استطاعت بعد يأس أن تحرك يدها وتضعها فوق المائدة التي يلعبون عليها الدومينو . فلما رأى اللاعبون تلك اليد البيضاء الناعمة الرخوة فوق المائدة ، دهشوا دهشة عظيمة .. وتوقف جريفيه عن اللعب ، وبقيت يده معلقة في الهواء في اللحظة الرائعة التي كان يتأهب فيها لوضع « الدبش » وكسب اكبر رقم في الدور

ولم تكن العجوز قد حركت يديها منذ اصيبت بالشلل ، فصاح ميشو :

— انظرى .. انظرى يا تيريزا .. مدام راكان تحرك اصابعها .. لابد أنها تريد شيئا ما .. !

ولم تستطع تيريزا ان تجيب .. وكانت قد رأت مجهود العجوز المستميت كما رآه ايضا لوران ، ونظرت الى يد عمتها ، وخيل اليها انها يد الانتقام تهيب أن تشهر بها .. وتعلقت انفاس القاتلين رعبا وجزعا ..

وهتف جريفيه على الاثر :

— أى وربى ! انها قطعا تريد شيئا .. انا أفهم جيداً معنى نظراتها .. فهمت ! .. انها تريد أن تلعب معنا الدومينو ! اليس كذلك يا صديقتى العزيزة ؟

وحركت مدام راكان عينيها حركة عنيفة إعرابا عن رفضها .. ومدت اصبعها السبابة ، وقبضت بقية الاصابع بصعوبة هائلة ، ثم شرعت بجهد وعناء تخط حروفا على مفرش المائدة . وبعد خطين ، صاح جريفيه :

— فهمت ! .. انها تريد أن تقول انى احسنت بلعبة الدبش !

فرمقته العجوز بنظرة هائلة ، فلو استطاعت نظرة أن تصفع لصفعته نظرتها ! .. ومرة أخرى شرعت تخط الكلمة التي تريدها على مفرش المائدة .. بيد ان جريفيه لم يكف عن مقاطعتها ومحاولة تخمين مرادها ، الى أن حمله ميشو على السكوت

— عليك اللعنة ! دع مدام راكان تكتب ما تريد .. اكتبى يا صديقتى العزيزة ..

وركز نظراته على المفرش ، كأنه يصغى لكلام مسموع . ولكن

الاصابع الكليلة أصابها التعب ، فلم تخط الا بضعة احرف . وبصعوبة استطاع ميشو وابنه أوليفييه أن يتبينا مضمونها ... وصاح أوليفييه :

— انها تكتب اسم تيريزا .. « تيريزا و .. » ثم ماذا ؟

وكادت تيريزا عندئذ ان تصيح صيحة فزع ، وهى ترى اصبع عمتها تنساب فوق المفرش . وخيل اليها انها ستكتب كل قصة جريمتها باحرف من نار ، وقفز لوران من موضعه ، وهو يغالب رغبته فى الهجوم على المرأة المشلولة ليحطم يدها أو يكسر ذراعها التى دبت فيها الحياة على غير توقع .. وظن أنه مقضى عليه لامحالة، حتى لقد احس بيد الجلاد على مؤخرة عنقه

وصاح اوليفييه بعد فترة صمت متوتر :

— آه .. « تيريزا ولوران هما » .. هذا ما كتبته ثم ماذا .. ماذا تريدين ان تقولى عن ولديك يا مدام راكان .. ؟

وبلغ من رعب القاتلين انهما اوشكا ان يتما العبارة بصوت مرتفع، وكانت نظراتهما مركزة على هذه اليد الواهنة الكليلة ، عندما تشنجت تلك اليد وتراخت فوق المائدة سليبة الحيوية ..

لقد عاد الشلل الى هذه اليد ، فصارت كما كانت كتلة من اللحم الهامد .. ثم شيئا فشيئا سقطت اليد عن المائدة واستقرت فى حجرها .. وجلس ميشو واوليفييه فى مقعديهما ، وقد خاب املهما فى فهم ما تريد ان تقوله لهما . اما تيريزا ولوران فلم يكن لسرورهما بانفراج كربهما حد .. حتى كاد يغمى عليهما من شدة اندفاع الدم الى راسيهما ، وسرعة خفقان قلبيهما ..

ومرة اخرى عاد « الفيلسوف » جريفيه يفسر كل شىء بفطنته :

— صدقونى انا .. انها تريد ان تقول : « تيريزا ولوران هما ملاكاى الحارسان .. انهما يرعيانى خير رعاية . ! »

وبطبيعة الحال وافق الجميع على هذا التفسير ، وانطلقوا يهنئون تيريزا ولوران ، ويسوقون اليهما المديح العاطر .. وقال ميشو بكل وقار :

— ما من شك فى أن مدام راكان تريد ان تعرب عن تقديرها العظيم

لرعايتكما الحانية.. والآن فلنتم مباراتنا الحامية من حيث قطعناها

لرعايتكما الحانية .. والآن فلنتم مباراتنا الحامية من حيث قطعناها الى الانتقام من عدويها ، فقررت أن تصوم عن الطعام حتى الموت !. وكان ذلك أهون على نفسها من عـذاب الوجـود معهما دائمـا ، واحتياجها ، وهى عاجزة عن كل شىء ، الى عنايتهما .. وليس أقتل للنفس الكريمة من حاجتها الى لئيم .. !

أى عذاب صامت تعانيه ، وهى تتحمل قبلات تيريزا لهـا كل صباح ومساء .. فلا تستطيع أن تدفعها بيديها المشلولتين ، ولا أن تبصق فى وجهها !

وظلت يومين كاملين تلفظ كل طعام ، باذلة اقصى قوتها فى اطباق اسنانها ، حتى لا تدس تيريزا شيئا من الطعام بينهما .. وكادت تيريزا تجن من فرط اليأس ، لاتدرى ماذا تصنع .. فعمتها المشلولة هى العزاء الوحيد الباقى لهـا .. تبـكى مستغلة جمود شللها وتنتحب وتكفر عن زلتها وهى آمنة من الوشاية .. فان ماتت غدا ماذا تراها صانعة بأيامها ووحدتها المطلقة التى لا تطاق مع لوران ؟!

ولم تفد جهود تيريزا فى ارجاع عمتها عما اعتزمته.. واستخدمت العنف معها لفتح فمها بلا فائدة ، ولوران يرى ما يجرى أمامه وهو لا يحرك ساكنا . فقد كان يعجب فى نفسه اشد العجب فى تشبث تيريزا بمنع عمتها فى الاقدام على الانتحار بهذه الوسيلة .. ولعله لو ترك لنفسه ، لفكر فى قتلها بعد ان عرفت السر ، وباتت نظراتها تذكيرا دائما بالجريمة ، بعد ان كان وجودها حائلا دون ظهور شبح كاميلوس المختبىء فى غرفة النوم !

ــ دعيها لتموت ! .. مع الف سلامة ! .. وعسى أن نكون بعدها اسعد حالا

وكانت مدام راكان تسمع هذا الكلام وتعيه جيدا ، فاحدث ذلك لديها رد فعل عجيب .. وخطر لها ان موتها قد يؤدى فعـلا الى نسيانهمـا ما اقترفاه ، فيحظيا بساعات من الهـدوء والراحـة والسعادة .. وقالت فى نفسها :

ــ ما اجبننى لو مت منتحرة وتركت لهما الحياة ينعمان بها ..

يجب أن أعيش الى أن أجد وسيلة لتقويض سعادتهما والانتقـام منهما .. وعندئذ اذهب الى كاميلوس وابشره انى انتقمت له !

وكانت ترى بعينيها ان كل يوم ينقضى تزداد فيه الامور سوءا بين الزوجين . وليس ببعيد أن يحـدث بينهما انفجار يودى بهما معا .. فبعد أن كان الليل فقط هو فترة عذابهما ، صار كل وقت يجتمعان فيه معا وقت عذاب .. !

بل لقد خطر للقاتلين فى وقت من الاوقات انه خير لهما أن ينفصلا .. وفكر كل منهما على حدة فى الفرار ليعيش بعيدا عن هذا الجو الخانق . ولكن المتجر الصغير كان يكبلهما بقيوده ..

وحاول لوران أن يطيل فترات غيابه فى الخارج ، ولا سيما فى مرسمه .. وكانت تيريزا تقضى وقتها موزعة بين حجرة عمتهـا والمتجر والمطبخ.. وربما دعت سوزان زوجة اوليفييه لتقضى بضعة ايام معها كى تخفف عنها الوحشة ، فكانت سوزان تأتى بكل سرور لأنها كانت تحب تيريزا كثيرا ..

وباختفاء العجوز من المتجر ، بدأ العملاء الثابتون ينقطعون ، لان دماثة مدام راكان كانت هى التى تجتذبهم . أما تيريزا فـكانت على شىء كثير من الفظاظة وجفاف السحنة والتعبير .. فقلت الموارد شيئا فشيئا ، وبدأ العنكبوت يبنى شراكه فى الاركان الخاوية

وبدأ لوران يضرب تيريزا فى بعض الاحيان لاتفه الاسـباب ، أو لغير ما سبب .. وبدورها تصب سخطها على الزبائن وتلقاهم أسـوأ لقاء ، فيذهبون لغير رجعة !

وبعد خمسة اشـهر من الزواج ، ايقنت تيريزا انهـا حامل ، فاستولى عليها فزع هائل.. واعتقدت انها ستلد جنينا مخنوقا.. مخنوقا باسفكسيا الغرق !! وان هذا هو الانتقام الذى اعدته لهـا الاقدار ..

وكتمت تيريزا الامر عن زوجها .. لم تخبر احدا ، لانها قررت التخلص من ذلك الجنين .. وذات يوم تعمدت ان تثيره ، فرفع رجله ليركلها كعادته ، فعرضت له بطنها فى تحد ، وبجنون الحاقد اجاب التحدى .. وظل يركلها فى بطنها الى ان اغمى عليهمـا . وفى

اليوم التالى اجهضت .. ؟

وبعدها صارت تكثر من التغيب من المتجر فى كل عصر تقريبا ، وتترك سوزان فى مكانها الى ان تعود ، من غير ان تخبرها الى اين تذهب ..

ولاحظ لوران هذا التغيب الذى يطول ثلاث ساعات ، خمس مرات كل اسبوع .. وخيل اليه انها شرعت فى خيانته ، فقرر ذات يوم ان يتعقبها وهى لا تدرى ..

وكمن لها فى مواجهة ناصية الممر ، الى ان رآها قادمة فى ثياب صارخة الالوان ، وقد تزينت مثل فتيات الهوى . وراحت تتبختر على طوار الشارع الكبير وتهتز باثارة مفتعلة ، وهى ترمق المارة من الرجال بنظرات الغواية !

وتبعها الى ان دخلت شارع مدرسة الطبابة ، ثم انتهت الى ميدان القديس ميشيل ، ثم دخلت مقهى وجلست على مائدة تطل على الطريق ، وحضرت اثنتان من فتيات الهوى ، فجالستها بغير تكلف مما يدل على قديم الفة بينهن .. وجاء بعد قليل شاب اشقر فشرب معها كأسا من الابسنت ، ثم تأبطت تيريزا ذراعه ونهضت معه ، فتوجها الى مخدع من مخادع الريبة فى شارع الزهر ..

وبلغ من بعدها عن قلبه عندئذ ، انه لم يحس ألما عميقا لخيانتها وتبذلها .. انها لم تعد منه ، بالحب .. بل بالاشتراك فى الاثم والجريمة وازهاق النفس !

ولكنه فى المساء ضربها علقة ساخنة ، وطلب منها خمسة آلاف فرنك لينفقها على ملذاته .. فقد قرر أن يجاريها فى الفجور عسى أن ينسى ، ولكن فجور الرجل يكلفه مالا تتكلفه المرأة فى فجورها الذى تتقاضى عليه اجرا ؟ فلما قاومته اوجعها وافهمها بالكناية انه يتقاضاها ثمن سكوته على سلوكها المعوج .. والا فانه سيفضحها .. وسيعترف بجريمتهما ليتخلص من حياته التى باتت لا تطاق ويدفع بها معه الى المقصلة !

وما هاله الا توقد عينيها بشرر التحدى ، وهى تقول له :

ــ وهل تظننى لا أرحب براحة الموت لاتخلص من حياتى معك ؟ هيا معى الى الشرطة !

ولكنهما ما ان هبطا الى المتجر حتى عاودهما الجبن ، وتصالحا .. ونقدته المبلغ .. وانطلق الى حانته فعب من الخمر ما اسكره ، واضحك عليه الرواد وبنات الليل . وصحب احداهن الى حجرتها ولكن الخمر لم تفلح فى بعث ما مات من ثقته برجولته .. واستلقى على الفراش لا يعى الى مطلع الصبح !

وهكذا اندفع كلاهما الى التمرغ فى الوحل ، كل على طريقته وفى وجهته ، حتى سقط منهما كل اعتبار ، وتمزقت اعصابهما شر ممزق ، من غير ان يحصلا على ما ينشدانه من النسيان وراحة البال .. وبدا كل منهما يعد سرا وسيلة لقتل صاحبه ثم يقدم على الانتحار ، ليضع حدا لهذا العذاب الذى ليس له آخر !

وذات ليلة ، بينما تيريزا ترفع الاطباق من المائدة ، لمحت عفوا لوران وهو يصب خلسة قارورة صغيرة فى كوب اللبن الذى كان من عادتها أن تسقيه للعجوز قبل أن تنام .. وبهدوء مدت يدها الى كوب اللبن ، وبدلا من أن تقدمه الى عمتها ، شربت نصفه ..!

واختطف لوران الكوب المسموم من يدها وتجرع بقيته ..

وسقط الاثنان على الارض .. واطبقت تيريزا شفتيها على عنق لوران تقبله .. فوقعت شفتاها على اثر عضة كاميلوس .. !

وظلت الجثتان على الارض طول الليل ، ومدام راكان فى مقعدها تنظر اليهما نظرات غريبة ، ولا تستطيع أن تصرخ شكرا لله على انه ابقاها الى ان رات بعينيها انتقامه لولدها .. وكأنها تقول :

ــ الآن يا رب اطلق عبدك بسلام .. فقد شهدت دليل عدلك..

تمت

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

هذه الرواية

قصة تيريزا راكان هى اول رواية عظيمة ، اطارت شهرة اميل زولا ، زعيم المدرسة الطبيعية فى الادب القصصى

وهو فى هذه الرواية يروى قصة النفوس البشرية حين تستذلها الرغبة الجامحة ، ويسيطر فيها شيطان الجسد على قياد الرجل او المراة ، فيخمد صوت الضمير ، والعقل ، والمصلحة ...

واذا كان شيطان الجسد جامحا ، فان غفلة الناس وسذاجتهم ، وانانيتهم هى التى تيسر السبل امام ذلك الشيطان كي يبسط سلطانه ويصل الى اغراضه الخبيثة ...

وقد استطاع اميل زولا ان يصل بعقدة القصة الى ذروتها الكبرى ، حين جعل الجريمة هى النتيجة الطبيعية للانسياق وراء الشهوة ، وحين جعل الموت هو النتيجة الطبيعية للغفلة والانانية

ولكنه لم يترك الجريمة بغير عقاب ، ولم يترك الاثم بغير ندم ، بل بين كيف تكون عاقبة الجريمة ونتيجتها المحتمة هى الشقاء والقصاص الالهى ..

فهذه القصة التى تكشف عن خفايا النفوس البشرية ومكنونات المطامع والشهوات وراء نفاق الصداقات المزعومة ، تقوم فى الوقت نفسه العبرة الاخلاقية وكلمة الحياة ...

تيريزا

المؤلف

* من اشهر الروائيين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر
* يمتاز بدقة التحليل ، وحبكة الموضوع ، ووصف البيئة الاجتماعية
* يعد « زولا » امام المدرسة الطبيعية فى الادب ، وامام المدافعين عن العدالة
* من درره القصصية العالمية قصة « نانا » التى ترجمناها فى روايات الهلال باسم « غانية باريس »